الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

توظيف التراث
في شعر سميح القاسم

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

فـرع:أدب عربي

تخصص: أدب عربي حديث

اعــداد الطالبة:

-عائشة كداد

إشراف الأستاذ:

- ناصر محمد الحسني تيس

السنة الجامعية:2012/ 2013

نتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى الأستاذ المشرف الشيخ تيس ناصر محمد الحسني الذي تعلمنا من لحظه قبل لفظه وتعلمنا منه الصبر والعطاء، وها نحن نستفيد من نصحه للمرة الثانية.

كما نتقدم بالشكر لأستاذنا الفاضل سلامة عبيد عابد الزريعي والأستاذ بوزيد رحمون على نصحهم وتوجيههم، ونقول لهم: أبشروا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم { معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر}

ونتقدم بجزيل الشكر لطاقم وأعضاء قسم اللغة العربية وآدابها .

كما لا يفوتنا أن نتقدم لأختنا ومعلمتنا وقدوتنا الأستاذة أسيل تلاحمة التي جعلت كل ما تملك في خدمتنا.

مـقـدمة:

الحمد الله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل، والصلاة والسلام على نبينا خاتم النبيين وإمام المرسلين، جدد الله به رسالة السماء، وأحيا ببعثته الأنبياء، ونشر بدعوته آيات الهداية وأتم به مكارم الأخلاق وعلى آله وأصحابه، الذين فقههم الله في دينه أما بعد:

للتراث أهمية كبيرة في الثقافة العربية فهو ماضي الأمة العريق وأصالتها المشرقة فالعرب قد اهتموا بالتراث العربي اهتماما كبيرا ونسجوا على منواله حياتهم وعملوا على توعية الأجيال الجديدة بعراقة هذا التراث، وكان من أهم وسائل الإهتمام بالتراث العربي العمل على توظيفه في الأدب روايتا ومسرحا وشعرا، ونظرا لإحتلال الشعر المكانة الأبرز بين سائر ألوان الأدب الأخرى فقد حظي الشعر العربي بشتى ألوان التراث، وأصبحت القصيدة العربية تتغنى بالتراث في أحضان أبياتها، بل ويمكن لنا القول بأن جمال القصيدة العربية أصبح يتوقف على قدرة استدعائها للتراث. وبما أن الشعر الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الشعر العربي فقد اعتنى هو الأخر بالتراث بشكل عام، وعمل على توظيفه مستخدما في ذلك وسائل متعددة لتتغنى القصيدة الفلسطينية بالتراث فكل من محمود درويش ومعين بسيسو وسميح القاسم وغيرهم الكثير وظفوا التراث في قصائدهم توظيفا كبيرا حتى أن القارئ العربي عندما يقرأ قصائدهم، ويسبح في فضاء نصهم ينتقل إلى حالة شعورية تجعله وكأنه يرى التراث و يعيشه فعلا. إن الشعر الفلسطيني يشوق أي باحث لتناول موضوع توظيف التراث فيه.

ولكني أردت أن يكون بحثي أكثر عمقا و تفصيلا، وذلك من خلال إفراده لدراسة التراث في شعر أحد الشعراء الفلسطينيين وليس بشكل عام، وقد وقع إختياري على الشاعر الفلسطيني سميح القاسم، فوجدت في شعر سميح القاسم توظيفا كبيرا للتراث، كما أن شعره جذبني كثيرا لموضوع الدراسة لما في هذا الشعر

مـن أصـالة وعراقـة فسـميح القاسـم شـاعر ثـوري أمضـى حياتـه فـي رفـض الظلـم والجـور المسـلط علـى أبنـاء شـعبه الفلسـطيني .ولاشـك أن عمليـة توظيـف التـراث عمليـة ليسـت باليسـيرة، لأنهـا تعتمـد علـى اسـتدعاء النصـوص التراثيـة الغائبـة، وتضـمينها فـي بنيـة الـنص الحاضـر، ليحـدث نوعـا مـن الـتلاحم البنيـوي بـين كـلا النصـيين وهـذا يتوقـف بـالطبع علـى اتسـاع الجانـب المعرفـي والثقـافي بـالتراث مـن ناحيـة ومـن ناحيـة أخـرى يتوقـف علـى مـدى إمكانيـة إمـتلاك الشـعر لأدوات التوظيـف المختلفـة، والتـي يظهر مدى توفرها عند الشاعر من خلال عملية تحليل وتذوق قصائده.

وبما أن هناك اختلاف على تحديد مفهوم التراث ومادته، أمكننا أن نتساءل:

- **ما التراث ؟**
- **كيف تم توظيفه في شعر سميح القاسم؟**
- **هل استطاع من خلاله القاسم أن ينفذ إلى قضايا شعبه؟**

وللإجابـة عـن هـذه الأسـئلة، معتمـدة علـى المـنهج التـاريخي، بـدأت دراسـتي هـذه بتمهيد تلاه فصلان:

اشـتمل التمهيـد علـى توضـيح لمفهـوم التـراث قـدر الإمكـان، بالإضـافة إلـى أشـكال هـذا التـراث ومصـادره المختلفـة التـي نهـل الشـعراء المعاصـرون بشـكل عـام مـن ينابيعهـا. وقـد جمعـت فـي الفصـل الأول كـلا مـن التـراثين الأسـطوري والتـاريخي لوجـود نقـاط تلاقـي بينهمـا حيـث بـدا الفصـل الأول بالحـديث عـن مفهـوم التـراث الاسـطوري وثـم عـرض للقصـائد الشـعرية التـي اشـتملت علـى ذلـك المـوروث فـي شـعر سـميح القاسـم، وفـي المبحـث الثـاني تناولـت المـوروث التـاريخي مـن حيـث مفهومـه وبيـان كيفيـة اسـتدعاء الشـاعر لـذلك المـوروث، أمـا المبحـث الثالـث فكـان بمثابـة نقطـة التلاقـي بـين هـذين المـوروثين فيمـا يسـمى بـالتراث التـاريخ سـطوري مـع تحليـل نمـاذج شـعرية اشتملت على هذا اللون التراثي.

أمـا الفصـل الثـاني والأخيـر، فيرصـد القصـائد التـي ورد فيهـا كـلا مـن التـراث الأدبـي والشـعبي فقـد بـدأ الفصـل بتطـرق للنصـوص الأدبيـة التـي اسـتوحاها شـاعرنا فكانـت عربيـة بحتـة، وذلـك للتوافـق اللغـوي فلـيس مـن المعقـول أن يوظـف الشـاعر فـي قصـيدته قصـيدة أخـرى مـن لغـة أخـرى علـى الـرغم مـن إعجابـه بشـعراء الغـرب، وفـي المبحـث الثـاني كـان الحـديث منصـبا علـى التـراث الشـعبي خاصـة الأغنيـة الشـعبية وفـي نهايـة الفصـل تـم رصـد الحكايـة الشـعبية التـي اسـتوحاها الشـاعر مـن تراثنـا الفلسـطيني والعربـي كحكايـة الجـن والغولـة، التـي اسـتدعى الشـاعر الكثيـر مـن شخصـياتها ومحورهـا فـي بنيـة الـنص الأدبـي، وقـد اعتمـدت علـى مجموعـة مـن المراجع والمصادر في دراستي.

وفـي الختـام أحمـد الله رب العـالمين علـى السـير فـي هـذه الدراسـة رغـم ضـيق الوقـت، وأتمنـى أن تكـون دراسـتي المتواضـعة قـد قـدمت شـيئا يحمـل بعضـا مـن الفائـدة لدراسي ومحبي الشعر الفلسطيني.

المدخل

سميح القاسم حياته وأعماله الأدبية

- سميح القاسم حياته وأعماله الأدبية
- مفهوم التراث ومصادره
- مفهوم التوظيف في شعر العربي الحديث

سميح القاسم، أحد أهم الشعراء العرب والفلسطينيين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والمقاومة من داخل أراضي العام 48، مؤسس صحيفة كل العرب ورئيس تحريرها الفخري، عضو سابق في الحزب الشيوعي، ولد لعائلة عربية فلسطينية في قرية الرامة عكا فلسطين عام 1939م، وتعلم في مدارس الرامة والناصرة وعلّم في إحدى المدارس، ثم انصرف بعدها إلى نشاطه السياسي في الحزب الشيوعي قبل أن يترك الحزب الشيوعي ليتفرغ لعمله الأدبي.[1]

كان والده ضابطا برتبة رئيس "كابتن" في قوة حدود شرق الأردن وكان الضباط يقيمون هناك مع عائلاتهم حين كانت العائلة في طريق العودة إلى فلسطين في القطار، في غمرة الحرب العالمية الثانية ونظام التعتيم، بكى الطفل سميح فذعر الركاب وخافوا أن تهتدي إليهم الطائرات الألمانية، و بلغ بهم الذعر درجة التهديد بقتل الطفل إلى أن اضطر الوالد إلى إشهار سلاحه في وجوههم لردعهم، وحين رويت الحكاية لسميح في ما بعد تركت أثرا عميقا في نفسه {حسنا لقد حاولوا إخراسي منذ الطفولة سأريهم سأتكلم متى أشاء وفي أي وقت وبأعلى صوت، لن يقوى أحد على إسكاتي}[2].

وروى بعض شيوخ العائلة أن جدهم الأول خير محمد الحسين كان فارسا من فرسان القرامطة قدم من شبه الجزيرة العربية لمقاتلة الروم واستقر به المطاف على سفح جبل حيدر في فلسطين على مشارف موقع كان مستوطنة للروم، وما زال الموقع الذي نزل فيه معروفا إلى اليوم باسم "خلة خير" على سفح جبل حيدر الجنوبي .

وآل حسين معروفون بميلهم الشديد إلى الثقافة وفي مقدمتهم المرحوم المحامي "علي حسين الأسعد"، رجل القانون والمربي الذي ألف وترجم وأعد

[1]- واصف أبو الشباب : شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر ، دار العودة ، بيروت ط1 ، 1981م ، ص : 260-261.
[2]- خضر محمد أبو جحجوح : سميح قاسم وشعره "شعر سميح القاسم بين الموقف الأيديولوجي والتشكيل الجمالي" (رسالة ماجستير) جامعة عين شمس ، القاهرة ، دط ، 2002 ، ص : 4 .

القواميس المدرسية وكتب الشعر وتوزعت جهوده بين فلسطين وسوريا ولبنان وأقام معهد الشرق لتعليم اللغات الأجنبية في دمشق .

سجن سميح أكثر من مرة كما وضع رهن الإقامة الجبرية والاعتقال المنزلي وطرد من عمله مرات عدة بسبب نشاطه الشعري والسياسي وواجه أكثر من تهديد بالقتل في الوطن وخارجه، اشتغل معلما وعاملا في خليج حيفا وصحفيا.[1]

شاعر مكثر يتناول في شعره الكفاح ومعاناة الفلسطينيين، وما إن بلغ الثلاثين حتى قد كان نشر ست مجموعات شعرية حازت على شهرة واسعة في العالم العربي.

كتب سميح القاسم أيضا عددا من الروايات، ومن بين اهتماماته إنشاء مسرح فلسطين يحمل رسالة فنية وثقافية عالية، كما يحمل في الوقت نفسه رسالة سياسية قادرة على التأثير في الرأي العام العالمي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية .

أسهم في تحرير الغد والاتحاد ثم رئيس تحرير جريدة هذا العالم عام 1966م ثم عاد للعمل محررا أدبيا في الاتحاد وأمين عام تحرير الجديد ثم رئيس تحريرها وأسس منشورات "عرب سك" في حيفا، مع الكاتب الفخري لصحيفة "كل العرب" الصادرة في الناصرة .[2]

صدر له أكثر من 60 كتابا في الشعر والقصة والمسرح والمقالة والترجمة، وصدرت أعماله الناجزة في سبعة مجلدات عن دور نشر عدة في القدس وبيروت والقاهرة .

ترجم عدد كبير من قصائده إلى الإنجليزية والفرنسية والتركية والروسية والألمانية واليابانية والإسبانية واليونانية والإيطالية والتشيكية والفيتنامية والفارسية والعبرية واللغات الأخرى .[3]

[1]- واصف أبو الشباب : شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر ، ص : 261.
[2]- المرجع نفسه ، ص : 261.
[3]- المرجع نفسه ، ص : 261.

توزعت أعمال سميح مابين الشعر والنثر والمسرحية والرواية والبحث والترجمة منها:

1. مواكب الشمس– قصائد – (مطبعة، الحكيم، الناصرة، 1958م)
2. أغاني الدروب– قصائد – (مطبعة، الحكيم، الناصرة، 1964م)
3. إرم – سردية – (نادي النهضة أم الفحم، مطبعة الاتحاد، حيفا، 1965م)
4. دمي على كفي– قصائد – (مطبعة الحكيم، الناصرة، 1967م)
5. دخان البراكين – قصائد – (شركة المكتبة الشعبية، الناصرة، 1968م)
6. سقوط الأقنعة – قصائد – (منشورات دار الآداب، بيروت، 1969م)
7. ويكون أن يأتي طائر الرعد – قصائد– (دار الجليل للطباعة والنشر، عكا، 1969م)
8. اسكندرون في رحلة الخارج والداخل – سربية – (مطبعة الحكيم، الناصرة، 1970م)
9. قرقاش – مسرحية – (المكتبة الشعبية في الناصرة، مطبعة الاتحاد، 1970م)
10. عن الموقف والفن – فكر – (دار العودة، بيروت، 1970م)
11. ديوان سميح القاسم – قصائد – (دار الآداب، بيروت، 1970م)
12. قرآن الموت و الياسمين – قصائد – (مكتبة المحتسب، القدس، 1971م)
13. الموت الكبير – قصائد – (دار الآداب، بيروت، 1972م)
14. مرائي سميح القاسم – سربية – (دار الآداب، بيروت، 1973م)
15. إلهي، لماذا قتلتني؟ – سربية – (مطبعة الاتحاد، حيفا، 1974م)
16. من فمك أدينك – نشر – (منشورات عربسك، مطبعة الناصرة، 1974م)
17. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم– قصائد– (منشورات صلاح الدين، القدس، 1976م)
18. ثالث أكسيد الكربون – سربية – (منشورات عربسك، مطبعة عتقي، حيفا، 1976م)

19. الكتاب الأسود – يوم الأرض – (توثيق مع صليبا خميس، مطبعة الاتحاد، حيفا، 1976م)
20. إلى الجحيم أيها الليلك – حكاية – (منشورات صلاح الدين، القدس 1977م)
21. ديوان الحماسة /ج1 – قصائد – (منشورات الأسوار، عكا، 1978م)
22. ديوان الحماسة /ج2 – قصائد – (منشورات الأسوار، عكا، 1978م)
23. أحبك كما تشتهي الموت – قصائد – (منشورات أبو رحمون، عكا، 1980م)
24. الصورة الأخيرة من الألبوم – حكاية – (منشورات دار الكاتب، عكا، 1980م)
25. ديوان الحماسة /ج3 – قصائد – (منشورات الأسوار، عكا، 1981م)
26. الجانب المعتم من التفاحة الجانب المضيء من القلب – قصائد – (دار الفارابي، بيروت، 1981م)
27. الكاتب الأسود – المؤتمر المحضور– (توثيق مع د/إيميل توما، مطبعة الاتحاد ، حيفا، 1981م)
28. جهات الروح – قصائد – (منشورات عربسك، حيفا، 1983م)
29. قرابين – قصائد – (مركز لندن للطباعة والنشر، لندن، 1983م)
30. كولاج – تكوينات – (منشورات الأسوار، عكا، 1984م)
31. الصحراء – سربية – (منشورات الأسوار، عكا، 1984م)
32. برسونانون غراتا شخص غير مرغوب فيه – قصائد – (دار العماد، حيفا، 1986م)
33. لا أستأذن أحدا – قصائد – (رياض الريس للكتب والنشر، لندن، 1988م)
34. سبحة للسجلات – قصائد – (دار الأسوار، عكا، 1989م)
35. الرسائل – نشر – (مع محمود درويش، منشورات عربسك، حيفا، 1989م)
36. مطالع من أنثرولوجيا الشعر الفلسطيني في ألف عام – بحث وتوثيق – (منشورات عربسك، حيفا، 1990م)
37. رماد الوردة، دخان الأعنية – نشر – (منشورات فاعمرو، 1990م)

38. أخذة الأميرة يبوس – قصائد – (دار النورس، القدس، 1990م)

39. الأعمال الناجزة – سبعة مجلدات – (دار الهدى، القدس، 1991م)

40. الراحلون – توثيق – (دار المشرق، شفا عمرو، 1991م)

41. الذاكرة الزرقاء – قصائد – مترجمة من العبرية مع نزيه خير (منشورات مفراس، 1991م)

42. الأعمال الناجزة – سبع مجلدات – (دار الجيل، بيروت، 1992م)

43. الأعمال الناجزة – ستة مجلدات – (دار سعاد الصباح، القاهرة، 1993م)

44. الكتب السبعة – قصائد – (دار الجديد، بيروت، 1994م)

45. أرض مراوغة حرير كاسد لا بأس – قصائد – (منشورات إبداع، الناصرة، 1995م)

46. ياسمين، قصائد لروني سوميك، مترجمة عن العبرية مع نزيه خير (مطبعة الكرمة، حيفا، 1995م)

47. خذلتني الصحاري – سربية – (منشورات إضاءات، الناصرة، 1998م)

48. كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه – سربية – (منشورات الأسوار، عكا، 2000م)

49. سأخرج في صورتي ذات يوم – قصائد – (منشورات الأسوار، عكا، 2000م)

50. الممثل وقصائد أخرى (منشورات الأسوار، عكا، 2000م)

51. حسرة الزلزال – نثر – (منشورات الأسوار، عكا، 2000م)

52. كتاب الإدراك – نثر – (منشورات الأسوار، عكا، 2000م)

53. ملك أتلانتس – سربيات – (دار ثقافات، المنامة البحرين، 2003م)

54. عجائب قانا الجديدة – سربيات – (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2006م)

55. مقدمة بن محمد لرؤى نوسترا سميحداموس – شعر – (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2006م)

56. بغداد وقائد أخرى – قصائد – (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2008م)
57. بلا بنفسج "كلمات في حضرة غياب محمود درويش (منشورات الهدى، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2008م)
58. أنا متأسف – سربية – (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009م)
59. مكالمة شخصية جدا "مع محمود درويش"– شعر ونثر– (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009م)
60. كولاج2 – شعر– (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009م)
61. لا توقضوا الفتنة – نثر– (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009م)
62. كتاب القدس – شعر– (إصدار بيت الشعر، رام الله، 2009م)
63. حزام الورد الناسف – شعر– (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009م)
64. الجدران أوبريت – شعر– (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2010م)
65. ملعقة سم صغيرة ثلاث مرات يوميا – حكاية – (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2011م)
66. قصيدة أماه غناها جورج قرمز .[1]

[1]- خضر محمد أبو جحجوح : سميح قاسم وشعره "شعر سميح القاسم بين الموقف الأيديولوجي والتشكيل الجمالي" ، ص : 4 - 5 .

مفـهـوم الـتــراث

وردت كلمـة التـراث بمعـاني مختلفـة فـي المعـاجم العربيـة، وإن كانـت فـي النهايـة لا تبتعد عن معناها الاصطلاحي.

ففـي لسـان العـرب جـاءت الميـراث مـن ورث الشـيء يرثَـه وِرثًـا ووراثَـةٌ وإراثَـةٌ.[1] أمـا فـي مقـاييس اللغـة " فـالواو والـراء والثـاء كلمـة واحـدة، هـي الـورث، وهـو أن يكـون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب.[2]

وفـي الصـحاح جـاءت الميـراث أصـله متـوارث، انقلبـت الـواو يـاء لكسـر مـا قبلهـا، والتـراث أصـله الثـاء فيـه واو.وَرِثـتُ الشـيء مـن أبـي، أرِثُـهُ بالكسـر فيهمـا وِرْثًـا، ووراثـة الألـف منقلبـة مـن الـواو، وَرِثَـهٌ الهـاء، تقـول: أورَثَـهٌ الشـيء أبـوه، وهـم ورَثَـةٌ فلان. وورَّثَهٌ توريثًا، أي أدخله فيما له على ورثته: عوض من الواو.[3]

وإذا تصـفحنا المعـاجم العربيـة الأخـرى نـرى أن معظـم معـاني " تـراث " تـذهب إلـى معنـى "الإرث" وهـو مـا يخلفـه الميـت مـن مـال فيـورث عنـه حيـث جـاءت بهـذا المعنـى فـي القـرآن الكـريم :{وتـأكلون التـراث أكـلاً لمًـا} فـالتراث فـي الآيـة الكريمـة تعنـي الميراث لغة .[4]

والتـراث اصـطلاحا : (مـا تـراكم خـلال الأزمـة مـن تقاليـد وعـادات وتجـارب وخبـرات وفنـون وعلـوم فـي شـعب مـن الشـعوب، وهـو جـزء أسـاس مـن قوامـه

[1]- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، دط ، 1995م ، مادة وَرَثَ.
[2]- أبو الحسن بن فارس : مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ج6 ، 1366هـ ، ص : 105.
[3]- إسماعيل بن حماد الجوهري : معجم الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، ج1 ، 1956م .
[4]- الفجر الآية 19 .

الاجتماعي والإنساني والسياسي والتاريخي والخلقي يوثق علائقه بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه.)[1]

وأما التراث العربي فهو يتمثل فيما خلفته لنا الأمة العربية منذ القدم من عطاء المضامين، بإمكاننا أن نستعين به في مواصلة الركب الحضاري فهو:(ما خلفه لنا السلف من آثار علمية وفنية وأدبية مما يعد نفيسا بالنسبة إلى تقاليد العصر الحاضر وروحه)[2]

[1]- عبد النور جبور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، دط ، 1979م ، ص : 63 .

[2]- المرجع نفسه ، ص : 63 .

مـــــصــادره

اختلفت وتنوعت مصادر التراث من حيث ماهيتها، وبرغم هذا الاختلاف إلاّ أنّ الأدباء نهلوا من جميع تلك المصادر، فمنهم من اهتم بالتراث الشعبي باعتباره التراث الذي يمثل ماضي الآباء والأجداد خير تمثيل، ومنهم من اهتم بالتراث الديني وخاصة الإسلامي باعتباره أساس كل أمة مسلمة ومنهم من اهتم بالتراث التاريخي بشكل عام والشخصيات على وجه الخصوص ومنهم من لم يرغب بالخروج عن إطار الأدب فاهتم بالتراث الأدبي وأهم أدبائه.

لذلك أرى أنه لابد من ذكر مصادر التراث المتنوعة والتي تشمل :

- التراث الأسطوري .
- التراث التاريخي .
- التراث الأدبي .
- التراث الشعبي . [1]

وسندرس كلا من هذه المصادر بالتفصيل متعرفين على أهم مامنحه كل مصدر شعرنا الحديث من شخصيات ، وما اكتسبته هذه الشخصيات من دلالات في هذا الشعر .

[1] علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، دط، 1997، ص73-74 .

مفهوم التوظيف في الشعر العربي الحديث

إن مصطلح توظيف التراث مصطلح جديد ظهر في العصر الحديث، والمقصود به أن يستلهم الشاعر من التراث ما يلاءم فكره وظروفه أو ظروف مجتمعه ويضمنها داخل النص الأدبي، فتوظيف الشخصيات التراثية يعني استخدامها استخداما تعبيريا يحمل بعدا من أبعاد الشاعر المعاصر أي أنها تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يد الشاعر فهو يعبر من خلالها –أو يعبر بها– عن رؤياه المعاصرة . فهو يعتبر الشخصية التراثية رمزا لشخصية معينة تؤثر في حياته أو حياة مجتمعه .

ولكن وجهات النظر النقدية تختلف من حيث طريقة تعامل الشاعر مع هذا الموروث ولكن يكاد يكون هناك قدرا من الإجماع على أن للتراث وظيفة في الإبداع والمعرفة والسلوك، وأن التعامل معه بوعي هو الذي يحقق الفائدة المرجوة .

على أية حال نستطيع القول بان أغلب الشعراء في العصر لحديث انكبوا على التراث ونظروا إليه نظرة جديدة تختلف على نظرة السابقين له فبعد أن كان الشاعر يتعامل مع التراث باعتباره جزءا من الماضي فقط لا يمكن تحويره، أصبح الشاعر في العصر الحديث " يرى في هذا التراث إمكانات تجدد لا تنفذ تحيا وتخلد بالاختيار الدائم بينها، بالإضافة الدائمة إليها، وتبني ما يلائم تجربة كل شاعر منها "[1] أي أنه لم يقف منه موقفا محايدا، أي لم ينسب التراث إلى مصدر منفصل عن واقع العصر .

فالتراث لا يناقض التطور، بل يعمل على إكمال دوره ويعطيه الحيوية والحركة للنهوض أكثر، والشاعر في تناوله لشخصيته التراثية لا يعمل على

[1] علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص : 190.

تصويرها كما هي، بل يرسم لنا صورة فنية لشخصية جديدة ويجعلها شخصية تراثية معاصرة في نفس الوقت وذلك بأن يختار من بين ملامح الشخصية التي يتناولها بما يتناسب وتجربته المعاصرة [1] ثم يسقط أبعاد تجربته على هذه الملامح التي اختارها .

سنقتصر في هذه الدراسة في الفصول التالية على شعر سميح القاسم وتحليل أشعاره لإظهار موهبة الشاعر وقدرته في توظيف التراث بشتى ألوانه، فقد اشتمل ديوانه على قصائد كثيرة حملت في باطنها ذلك الموروث وربما باستطاعتنا القول أن أغلب شعر سميح القاسم وظف فيه التراث وإن دلّ هذا الأمر على شيء فإنما يدل على اهتمام شاعرنا بالتراث .

[1] علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص : 233.

الفصل الأول

التراث الأسطوري و التاريخي

أولا : توظيف الأساطير والخرافات .

ثانيا : توظيف الشخصيات التاريخية .

ثالثا : توظيف الأحداث التاريخ سطورية .

وردت كلمة أساطير في لسان العرب بمعنى الأباطيل، وبمعنى الأحدوثة فواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا والأساطير الأباطيل، أُحدُوثَةٌ وأحاديث .

والأساطِيرُ أحاديث لا نظام لها واحدتها إسطَارٌ وإسطَارَةٌ بالكسر، وأَسطِيرَةٌ، وأُسطُورٌ وأُسطُورَةٌ .[1]

(الأسطورة مجموعة من الحكايات الطريفة المتوارثة من أقدم العهود الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع ويمتزج عالم الظواهر بما فيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية، بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية اعتقد الإنسان بألوهيتها، فتعددت في نظره الآلهة تبعا لتعدد مظاهرها المختلفة .[2]

لقد ساعد غموض الطبيعة، ومحاولة الإنسان القديم فك طلاسمها واكتشاف نظام الكون ومظاهره المختلفة، التي حاز فكره في تفسيرها ليتمكن من السيطرة على الطبيعة وترويضها وإخضاعها لإرادته لحماية نفسه من الكوارث الطبيعية، وما يترتب عليها من زلازل وبراكين وفيضانات وغيرها، ستعد في إيمانه بقوى غيبية أسند إليها التحكم في مصير الكون، فنشأت الآلهة باعتبارها تجليا لهذه الأفكار التي آمن بها، فكانت الشمس وضوحها المتألق ترمز إلى الحق والعدالة ويتحتم عليها حماية الإنسان من شياطين الظلام، وكان القمر مصدر الحياة والدفء والنماء والأسطورة لا مؤلف لها، ويتعين أن يكون أصلا غامضا إلى حد ما، كما تتميز بعمقها الفلسفي والفكري، تكون الشخوص فيها عبارة عن آلهة وأنصاف الآلهة أما الإنسان فهو مكمل لها لا أكثر، فجوهر الأسطورة فهو الأحداث الخارقة التي تصدر عن شخصيات لا وجود لها في الواقع التاريخي .

[1] ابن منظور : لسان العرب ، مادة : سَطَرَ .

[2] أنيس داود :الأسطورة في الشعر المعاصر ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ، دط ، 1975م ، ص : 19.

وتناولت الأسطورة الكثير من العلوم الإنسانية والفلسفية كالظواهر الطبيعية أو نشوء الكون والإنسان وغيرها من المواضيع ومن أشهر الأساطير القديمة أوزيس، حرب طروادة، برومثيوس، أوزوريس ...الخ.

كما يعد التراث التاريخي منبع من منابع الإلهام الشعري الذي يعكس الشاعر من خلال ارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤيا إنسانية معاصرة، ليصب همومه وما يطمح لتحقيقه على أرض الواقع، حاملا تأويلات جديدة للتعبير عن تجربته الشعرية مكسبا إياها لونا من ألوان العراقة، فخيال الشاعر هو تصور أو صدى لخيال الجماعة .[1]

ومن خلال قراءتي لشعر سميح القاسم لاحظت قدرة الشاعر على توظيف الأساطير والشخصيات التاريخية، كما وظف أحداث تقع بين التاريخ والأسطورة وسأقوم برصد تلك القصائد :

أولا : توظيف الأساطير والخرافة .

ثانيا : توظيف الشخصيات التاريخية .

ثالثا : توظيف لأحداث التاريخ سطورية .

[1] هرنشو ، علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، دط، 1937 ، ص 3-4 .

أولا : توظيف الأساطير والخرافة .

إن توظيف الأسطورة في شعر الحداثة له أهمية بالغة، وحضور بارز وباستحضار الأسطورة فإننا نستحضر التاريخ متداخلا مع الخرافة والحكاية الشعبية.

فالأسطورة لا تمثل بعدا دلاليا وفقط بل تتجاوزه إلى البعد الجمالي من كثافة وتوتر درامي وفضاء تخييلي تستدعيه، فهي ملاذ للإنسان يرى من خلالها النور والفرح، لأنها تخلق له حالة من التوازن النفسي مع محيطه ومجتمعه بواسطة الحلم، كهروب من الواقع المر والظالم .

إن اللجوء إلى الأسطورة في الفكر العربي المعاصر هو استحضار للبطولة الغائبة وحنين لها، وتوق لزمن نظيف وتاريخ غير ملوث بالطغاة الفجرة الظلمة، وعندما نستدعي البطل الأسطوري والتاريخي عبر زمن القصيدة هناك ما يدفعنا لتقمص هذا البطل وتمثل حالاته، كمخلص ووهج ينير طريقا مظلما .

فحضور الأسطورة في الشعر الفلسطيني، إما يكون محور النص وبؤرته وفيها يكون اسم الأسطورة مذكورا في عنوان القصيدة، أو يكون في جزء من الأسطورة، وقد يستخدم الشاعر الكثافة التكرارية لاسم الشخصية الأسطورية، أو يتم استدعاء هذه الأسطورة دون ذكر اسم شخصياتها كما قد يكون المتكلم في القصيدة هو الشخصية الأسطورية، أو شخصية الراوي وهي شخصية الشاعر نفسه.[1]

لقد تأثر معظم الشعراء العرب بقصيدة " الأرض اليباب " للشاعر (ت. س. إليوت) من أمثال : صلاح عبد الصبور، وبدر شاكر السيّاب وأمل دنقل ومحمود درويش وشاعرنا سميح القاسم .

[1] أحمد جبرت شعت ، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر ، مكتبة القادسية ، خان يونس ، ط1 ، 2002 ، ص 12-14 .

فطه حسين يدعوا إلى ضرورة انفتاح الثقافة العربية الحديثة على الثقافة اليونانية العريقة التي تعد من الأسس الهامة للثقافة المعاصرة في العالم كله، ففي كتابيه من الأدب التمثيلي اليوناني (" عن مآسي سوفوكليس " و" أوديب وتيسيوس من أبطال الأساطير اليونانية ") الذي ترجمه عن أندره جيد دعوة صريحة للرجوع إلى الأدب اليوناني القديم ممثل في روائع المسرح التراجيدي المليء بالأساطير والأجواء الساحرة، يقول طه حسين في هذا الصدد:(ولست أدري أمخطئ أنا أم مصيب، ولكنني أعتقد أن هاتين القصتين – قصة سوفوكليس وقصة أندره جيد– هما وحدهما اللتان تشهدان بأن محنة أوديب خليقة حقا بأن تكون موضوعا للتفكير الذي يغذي العقل، والفن الذي يغذي القلب، وبأن تكون من أجل ذلك صالحة لتفكير الفلاسفة وابتكار الأدباء على مر العصور واختلاف الأجيال)[1]

إن علاقة الشعر بالأسطورة علاقة قديمة تشهد لها العديد من المخلفات الفنية.

إن كليهما الشعر والأسطورة متصل بالتجربة الانسانية حافل بمنطوقها وأسرارها معبر عن مكوناتها وبواعثها النفسية والجمالية، ومن ثم أيضا يمكن القول أن عودة الشاعر المعاصر إلى استخدام الأسطورة في الشعر هو في واقع الأمر عودة حقيقية إلى منابع التجربة الإنسانية ومحاولة التعبير على امتداداتها في وقتنا الراهن، بوسائل عذراء لم يمسها الاستعمال اليومي فيمحي عنها صفة القداسة والسحر.[2]

يستهل سميح القاسم قصيدته إرم ببيتين يوضح فيها الصورة التاريخية لها، حيث يورد فيها أن هذه المدينة قد أهلكها الله عندما غرقت في الملذات والرذائل، ويذكر أن إرم التي يحلم بها هي إرم جديدة فاضلة يناضل من أجلها.

[1] فراس السواح : الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ، دار علاء الدين ، دمشق ، ط1 ، 1997م ، ص : 22.
[2] المرجع نفسه ، ص : 25.

وقد قدم سميح إرم الآثمة قديما وحديثا عبر أربع قصائد، تبدأ بقصيدة " البحث عن الجنة "، " الخطيئة والوثن"،" أبطال الراية"، فـ" هيروشيما".

كما يقدم إلينا سميح – أيضا – صورة إرم الفاضلة التي يسعى إليها عبر مجموعة من القصائد تتحول إلى بطاقات إلى ميادين المعركة، إلى بول روبنسون ، إلى فيدال كاسترو، إلى جان بول سارتر، إلى نجيب محفوظ، إلى كريستوف غبانيا، إلى ثوار الفيتكونغ، إلى أوري ديفز، إلى الأسطى سيد، إلى محمد مهدي الجواهري، وتنتهي هذه البطاقات إلى قصيدة " الطريق " التي تحدد المسار إلى إرم الفاضلة[1].

حيث قدم سميح القاسم في قصيدة " البحث عن الجنة ملامح آدم التاريخية، وهي ملامح لا نجدها دفعة واحدة في القصيدة، بل تتشكل بصورة متحركة عبر رؤية فلسفية يصدر عنها الشاعر.

وتتعين صورة إرم عبر حركة آدم التاريخية، وهي صورة مظلمة مخيفة، مبدية قلقا ساور نفس آدم التاريخي، هو قلق كوني يوحي بعدم الاستقرار في إرم الآثمة . يقول :

عبثا تحاول أن تنام

قدر عليك السهد والفزع المدمر والظلام [2]

وتصبح قصة آدم هي قصة إرم التاريخية في بدايتها المظلمة، وهي بداية تجسد الحرية المعدية [3]،في هذه المدينة الآثمة وتصبح حركة آدم في هذه المدينة مقيدة بالعواصف والثلوج والظلام .

---

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم "، دار العودة ، بيروت ، دط ، آذار 1973م ، ص : 302.

[2] المصدر نفسه ، ص : 305.

[3] أحمد درويش : مقالة (ملامح التجسيد الفني لظاهرة الحرية في شعر محمود درويش ، مجلة فصول ، المجلد الحادي عشر ، ع1 ، 1992م ، ص : 75.

يقول سميح القاسم :

والليل حولك والعواصف والثلوج فلن تنام[1]

ولا يخفى استخدام سميح ظواهر الطبيعة كمعادل موضوعي للعواطف المتناقضة في نفس آدم، وهي عواطف تجسد تمزق الذات حيال هذه المدينة الآثمة، ليصبح عذاب آدم هو نفسه عذاب إرم الآثمة . يقول :

قدّر عليك البؤس والألم المبرح والسقام [2]

فعذاب إرم عذاب كوني، أزلي مرتبط بقصة التخلق الدينية والمأساة السوداء لآدم . يقول :

فدارت الأجرام في الفلك المقيت ودبت الأحياء

في الآفاق سائبة يعيش ببعضها ... وكنت

لتلتقي في روحك الموبوءة آلام الخليقة والشقاء المر من ندم[3]

من هنا نلاحظ ارتباط مسيرة آدم التاريخية بمسيرة إرم التاريخية وهي مسيرة غير منفصلة، حيث كان لشهوة آدم بداية محركة ومشكلة لإرم الآثمة وهي شهوة نابعة من التشبه بالآلهة . يقول :

في تقليد ما سوّاك بالفعل المعذب والهيام

بشهوة صفراء، رائعة البداية، مرة التاريخ

فاجعة الختام[4]

وهذا التشبه سببه سعي آدم للمعرفة وهو سبب قلقه وحيرته، وعذابه يشبه عذاب بروميثوس وعذاب سيزيف، فلا أن عذاب آدم لإرم الآثمة الغير متشكلة

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم "، ص : 305.

[2] المصدر نفسه ، ص : 305.

[3] المصدر نفسه ، ص : 306.

[4] المصدر نفسه ، ص : 306.

بعد، فكانت هذه المعرفة سبب لسقوطه فراحت إرم تبحث عن ذاتها الضائعة القلقة الحزينة، نعم هي رحلة البحث عن الذات، في صراع متناقض حاد ومحتدم .

فيعم الجوع والفقر والطوفان والقهر في هذه المدينة الآثمة وما تعانيه من استبداد وظلم من الآلهة، وتبرز " اللات" الإله الوثني الجاهلي لتتوحد مع الإله الفرعوني " راع "

يقول سميح:

والمؤمنون ألا بقون، وجوههم اللات تزحف

في خنوع أبله قطعا بهم في الرمل تزحف[1]

استعمل سميح القاسم كلمات شعبية لتكون أكثر تعبيرا عن سوء وقذارة هذه المدينة الآثمة . فيقول :

وتهيأوا للجوع، للأوباء، للقمل السعيد[2]

وهنا يتم إسقاط المدينة القديمة " إرم " الآثمة، على المدينة المعاصرة التي تسودها الهيمنة السياسية والاستعمارية المجحفة، وشعر سميح القاسم بصورة عامة يحمل بذرة "اهتمام سياسي وثقافي" [3]

ثم قصيدة " أبطال الراية " لتبرز لنا الكفاح والمثابرة والمجالدة في هذه المدينة الآثمة. يقول :

جالد إذا فالحت، منتزعا خطاك من الوحول[4]

فهناك تجسيد بارز للثورة على الأنظمة المستبدة لهذه المدينة، حيث يستوحي الشاعر قصة النبي موسى ووصاياه، ليبرز بذلك عنصر المفارقة عند موسى من عجز المبادئ للوصول للغاية المنشودة، وبين واقع مرير لا

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم " ، ص : 314.

[2] المصدر نفسه ، ص : 315.

[3] الرزام عائشة خواجة : حوارية سميح القاسم ، دار الفولجا ، عمان ، ط1 ، 1990م ، ص : 31.

[4] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم "، ص : 317.

يـرحم، فكانـت وصـاياه مـن دعـوة إلـى عبـادة الله، ومحاربـة الوثنيـة وعبـادة العجـل المـذهب، فصـوت موسـى هـو صـوت ثـائر فـي وجـه ظلـم هـذه المدينـة الآثمـة السـوداء، محـاولا بهـا تغييـر هـذه الصـورة وجعـل مـن إرم مدينـة فاضـلة لكـن هيهـات فوصـاياه فشـلت ولـم تـنجح، لـذا راح سـميح القاسـم يـدعوه إلـى تحطـيم وصـاياه، وإلـى السـجود للعجـل المـذهب. فجمعـت فـي صـراعها بـين الطفـل والشـيخ، والعجـوز، بـين الزانية والقديس والقرصان والملاح. يقول :

في بحر الآسي الطامي الذي لا يرحم السفن البريئة تقطع

الأبعاد ..... بالقرصان والملاح

والأطفال والشيخ العجوز وغادة عذراء

حالمة بفارسها الجميل ..... وزوجة فضلى

وزانية وقدّيس وإنسان يغامر[1]

وبفاجعـة آدم ومصـيره المحتـوم كانـت حركـة إرم الآثمـة متناقضـة، وبهـذا جـاء التشكيل الدائري وجعل القصيدة ذات جو ديني قاتم السواد [2].

ثـم تجـيء قصـيدة " الخطيئـة والـوثن " التـي تـروي فاجعـة آدم وطـرده مـن الجنـة التي كان سببها سعيه للمعرفة . يقول :

ويهز صوت الله أركان الوجود

اليوم تفقد جنتي! فاخرج يرافقك الشقاء [3].

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم " ، ص : 307.

[2] غالي شكري : برج بابل "أدب المقاومة "، دار الآفاق الجديدة ، مطبعة رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت ، دط ، ص : 156.

[3] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم " ، ص : 312.

فتبدأ هنا قصة عذاب إرم التاريخية بعذاب آدم، ساعية للتخلص من شهوة سفك الدماء. يقول:

فيكن الإله راع الفرعوني رمز مجسد للظلم التاريخي للبشر، فراع هو إله هذه المدينة، الذي تقدم له الذبائح كقرابين للتقرب منه . يقول:

مازال يرمقه الملايين الرعاع

يتعبدون ويرفعون له الذبائح والقرابين البريئة[1]

وغداة يسبك كل شعب ما لديه من الحراب

إلى محاريث وترعى الشاة ما بين الذئاب

ماذا يكون؟ مفتتك الشاة الوديعة بالذئاب [2]

نلاحظ في هذه الأبيات عنصر التوتر والصراع ذات النبي موسى، وهو يمثل الصراع العميق المفزع في هذه المدينة الآثمة ، فسميح القاسم لجأ إلى أسلوب توازي الأضداد في هذه الأبيات . يقول :

فارحم وصاياك الشقية !

حطم وصاياك الشقية ! [3]

كما استخدم التوازي بين شخصية النبي موسى مع النبي عيسى "المسيح"، فالمسيح يضحي بجسده لإنقاذ هذه المدينة الآثمة "إرم"، فهو يدعو إلى السلم والسلام محاولا إرساخ تعاليمه . يقول سميح :

لم تثن الغزاة الطامعين البله عن وهم الفتوح [5]

[3] المصدر نفسه ، ص : 319 .

[4] المصدر نفسه ، ص : 320.

[5] المصدر نفسه ، ص : 320.

كما تبرز شخصية النبي محمد "صلى الله عليه وسلم"، فيعيش مطاردا منفيا غريبا في وطنه وهذا الضياع هو ضياع إرم الآثمة، محاولا أيضا تغيير صورة إرم الآثمة. يقول :

لم تحي أمواتا ولم تنهض كسيحا

لم تزل برَصًا ولم تخلق نبيذا من مياه [1]

إلا أن تعاليم النبي محمد بدأت تلقى صدى في هذه المدينة الآثمة . يقول :

فإذا الظلام يسيح في ذعر، ونور الفجر

يولد في العيون المطفآت[2]

فتنتج كلماته ثمارها، لتغيير إرم الآثمة . يقول :

فاسمع أغاني الثائرين

واشهد نهايات السجون

لتكون هيروشيما المجسدة لإرم المعاصرة في سفك الدماء . يقول :

طفل بلا رجل بلا عين، مخلوق بلا وجه

وأشباح من الإنسان المشبوه تستغيث [3]

وبهذا تكون نهاية قصة إرم الآثمة نهاية مؤلمة وبداية إرم الفاضلة . يقول :

واجتاز موكبنا مخاضات الدم الكبرى

إلى شطآن ..... جنتنا السعيدة !![4]

تجيء إرم الفاضلة عند سميح القاسم على شكل بطاقات موجهة إلى ميادين المعركة لتتحول إلى أغنيات ثورية تتغنى بالثوريين الأبطال أمثال فيدال كاسترو الذي يرفض الاستبداد والاستعباد الذي يمارسه الإنسان على أخيه محاولا بها بناء

[1] المصدر نفسه ، ص : 322.

[2] المصدر نفسه ، ص : 322.

[3] المصدر نفسه ، ص : 325.

[4] المصدر نفسه ، ص : 327.

مدينــة فاضــلة، ثــم تتحــول هــذه البطاقــات إلــى انتفاضــات شــعبية داعيــة للثــورة ضــد الاحتلال الأمريكي .

يقول : **قدما ..... يا أول شعلة**

فـي عـتمة أمريكا المحتلة[1]

فـيلاحظ أن كلمــة قـدما تكـررت لتعبـر عـن التحـدي والوقـوف فـي وجـه العـدو الظالم، وتتحد كلمة كاسترو مع كلمة سارتر الذي يمثل الحق والحرية .

ليصـبح بهـذا صـوت بـاريس هـو صـوت المدينـة الفاضـلة، حطمـت فيهـا الثـورة سجون الباستيل.

يقول سميح القاسم :

يا أنبل قنديل

في عتمة باريس العمياء

أطلقها من أعمق أعماق الإنسان[2]

لتبـرز صـورة نجيـب محفـوظ لتمثـل الكلمـة المـؤثرة والصـالحة فـي هـذه المدينـة الفاضلة، ليكون بذلك فاصلا بين إرم الفاضلة والآثمة.

ويقول عن إرم الآثمة :

عاشوا ..... لم تصحبهم كلمة

ويقول عن إرم الفاضلة :

ماتوا ..... لم تصحبهم كلمة [3]

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة إرم " ، ص : 330.

[2] المصدر نفسه ، ص : 335.

[3] المصدر نفسه ، ص : 345.

استخدم سميح القاسم هنا أسلوب توازي الأضداد –أيضا– ليوضح لنا صورة إرم الآثمة المكللة بدماء مسفوكة ومنتهكة، وإرم الفاضلة العروس العذراء ممثلة في صوت نجيب محفوظ .

يوظف الشاعر سميح القاسم عبارات شعبية تدعو للثورة، فيقول :

والعار لأبراج العاج المنهارة [1]

ليأتي صوت الجواهري كتحد ورفض كل أشكال الظلم و الهيمنة بكل أنواعها، خاصة السياسية، فتكون أبيات سميح في شكل حوارية شعرية مع الجواهري .

فيقول :

عفوا يا عملاق الكلمة إن شابت ألفاظي عجمة

عفوا فجراحي قاتلة والظلمة، تختفي الظلمة[2]

وهنا تكون نهاية إرم الآثمة وزوالها، وبداية إرم الفاضلة، ليبرز بصوته بزوغ فجر جديد يزيل الظلمة الداكنة ويزيلها ببزوغ إرم فاضلة جديدة .

يستهل سميح القاسم قصيدته " أغاني الدروب " بإبراز الصورة التاريخية لمدينة سدوم، حيث يورد في مجموعة من الأبيات مدينة لوط الواقعة في البحر الميت، هذه المدينة التي أهلكت ودمرت بإحراقها من طرف الآلهة، وطهرت من كل دنس، فأبيدت على آخرها ولم يبق فيها سوى النبي لوط وابنتيه، وذلك لما اقترفوا من رذائل وكبر وأفعال مشينة لا تمد للإنسانية بصلة، فأعادت الآلهة بعث نسل جديد فجاءت الأبيات بعنوان :

" القصيدة الناقصة "

يقول سميح القاسم : **وكان ذات يوم**

[1] سميح القاسم ديوان " قصيدة ارم " ، ص : 345.

[2] المصدر نفسه ، ص: 344 .

أشأم ما يمكن أن يكون ذات يوم

شرذمة من الظلال

تسربت تحت خباء ليل

إلى عشاش ... دوحها في ملتقى الدروب

أبوابها مشرعة

لكل طارق غريب

وسورها أزاهر وظل

وفي جنان طالما مر بها إله

تفجرت على السلام زوبعة

هدّت عشاش سربنا الوديع

وهشمت حديقة ... ما جدّدت "سدوم"

ولا أعادت عار "روما" الأسود القديم

ولم تدنّس روعة الحياة [1]

سدوم تجلت بشكل واضح وصريح هذه المدينة المشؤومة الملعونة من طرف الآلهة لما نتج من ظلم وجبروت أهلها وطغيان، فلم تسلم من غضب الآلهة، كانت سدوم مدينة آمنة تنعم بخيرات، إلا أن الخراب والدمار حل بها، وربط الشاعر " سدوم " بمدينته وما أصبحت عليه، كإسقاط أو تناص تاريخي بين الأسطورة والواقع.

لقد رمز الشاعر إلى الشعب الفلسطيني بالسرب من الطيور، هذا الشعب المسالم الذي يبحث عن الحرية والسلام، فهو شعب كان يعيش حياة بسيطة سعيدة في تآخ وحب شعب كريم ومعطاء إلى أن جاء العدو الصهيوني المرموز إليه ههنا

[1] سميح القاسم : ديوان " مجموعة أغاني الدروب " ، الأعمال الكاملة ، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1973م ، ص : 54 – 55 .

بشرذمة من الضلال، عادل قاتل لا يرحم ولا يعرف معنى الإنسانية والأخوة، يجري في عروقهم تعطش للدماء والقتل والنهب، يجيد القضاء على كل ماهو جميل، فراح يخنق الحريات ويدمر ويخرب كل أرجاء فلسطين، وهذا ما حل بسدوم بعد ما صب من غضب الآلهة على أهلها، فأبيدت إبادة تامة، إلا أن الفرق الوحيد في هذه المشابهة أن أهل لوط كانوا يستحقون هذه المعاقبة جراء ما ارتكبوه، أما أهل فلسطين فلا يستحقون ما يحدث بأرضهم من دمار، وما فعله المحتل من بطش وقهر وظلم وعدوان قد فاق حتى أفعال أهل مدينة سدوم فقد كانت أيادي إسرائيل أيادي لا ترحم باطشة جبانة، لا تعفو عن صغير ولا كبير ولا يمكن وصفها إلا بالصهيونية .

يقول سميح القاسم :

هشمت حديقة ..... ما حددت سدوم[1]

يتجلى في هذا البيت تهشيم كل ما هو جميل ومتفتح ليصبح السواد الداكن يملأ كل مكان بالمدينة المقدسة " فلسطين " لكن سيكون الخلاص ذات يوم ، كما أن النفوس ستثور وتناضل من أجل استرجاع حق مشروع سلب منها .

يقول سميح القاسم :

لكنني أسمع في قرارة الحروف

بقية النغم

أسمع يا أحبتي .... بقية النغم[2]

فسدوم هي قناع يختفي وراءه الشاعر ليسدد سهامه فيً صدر إسرائيل .

كما نجد بروز أسطورة أوديب وهي أسطورة إغريقية بعنوان " أنتيجونا " إحدى بنات أوديب الملك الملعون الذي حلت عليه لعنة الآلهة لاقتراف الوالد الذنب

[1] سميح القاسم : ديوان " مجموعة أغاني الدروب " ، ص : 55.

[2] المصدر نفسه ، ص : 56.

فيدفع الولد الثمن بقتل والده وحل مكانه وتزوج من أمه، فتصدق النبوءة وينجب منها ابنتين " أنتيجونا " التي تقف إلى جانب والدها في محنة وتساندة، فهي تمثل رمز الوفاء والإخلاص للأدب في أسوأ لحظات حياته وأصعبها مضحية بنفسها مآزرة له، فكانت سراجه المنير في رحلته الجديدة . يقول سميح القسيم :

خطوة .....

اثنتان .....

ثلاث .....

أقــدِم ... أقـــدِم

يا قربان الآلهة العمياء

يا كبش فداء

في مذبح للهوات العصر المظلم

خطوة .....

اثنتان .....

ثلاث .....

زندي في زندك

نجتاز الدرب الملتات !

... ...

يا أبتـــاه !

مازالت في وجهك عينان

في أرضك مازالت قدمان

... ...

يا أبتـــاه !

أن تسمِل عينيك زبانية الأحزان

فأنا ملء يديك

مسرجة من زيت الإيمان

وغدا يا أبتاه أعيد إليك

قسما يا أبتاه أعيد إليك

ما سلبتك خطايا القرصان

قسما يا أبتاه

باسم الله ... وباسم الإنسان

... ...

خطوة .....

اثنتان .....

ثلاث .....[1]

ثم ذكر الأسطورة وعنوانها صراحة فراح الشاعر يتكلم على لسان الشخصية الأسطورية "أنتيجونا" لتنير درب أوديب الجديدة، فأنتيجونا هي عيني أوديب التي يبصر بها، تقمص سميح الشخصية ليكون هو وغيره من أبناء وطنه خلاص لفلسطين، فأنتيجونا هي "أنا" الشاعر الثائرة والمتمردة والمخلصة الوفية للحبيبة فلسطين .

مضحي لأجلها ولسلامتها من عدو غاشم سام، فنعمة البصر لا تضاهي أي نعمة، هي ترمز للسواد والظلام إسرائيل لكن بقاء الحال من المحال كما يقال، سيعود كل شيء كما كان وأفضل ويعود الوطن آمن وهذا يكون بالنضال والثورة والتوحد من خلال كلمات مثل :(نجتاز، مازالت، تشرب، أعيد ...)

[1] سميح القاسم : ديوان " مجموعة أغاني الدروب " ، ص : 66 – 68 .

خطوة .....

اثنتان .....

ثلاث .....

وظف الشاعر رقم ثلاثة وتكرر ثلاث مرات، قصدا كدلالة على الثالوث المقدس :(الأب، الابن وروح القدس) عند المسيحيين .

كما له مدلول عند المسلمين من تكرار الأدعية ثلاث مرات، وترمز عند الشعوب بالخصب والحياة (الأرض، السماء، الماء) فالشاعر يسعى بالعدد ثلاثة للخلاص من المستدمر .

فالتشابه بين أسطورة "أوديب" الذي يعاني من لعنة الآلهة على جريمة لم يرتكبها، وواقع فلسطين التي تدفع ثمن جريمة لم ترتكبها بل ارتكبها الحكام المتخاذلون، فأنتيجونا عيني أبيها التي هدته للطريق، فقد كان الشاعر عيني فلسطين.

كما برزت أسطورة " عروس النيل " تحكي عن المصريين القدامى كانوا يقدمون قربانا للنهر كي لا يحدث الطوفان، فتختار أجمل فتاة من القرية وتقدم كطعام للأسماك والطحالب والصدف .

يقول سميح القاسم :

لمن تزينوها ... حبيبتي العذراء ؟!

لمن تبرجوناها ؟

أحلى صبايا قريتي ... حبيبتي العذراء !

يا ويلكم، حبيبتي ... لمن تزّف ؟

للطمي، للطحلب، للأسماك، للصدف ؟

نقتلها، نحرمها، وبعد عام

تنزل فينا من جديد نكبة الطوفان

ويومها لن يشفع القربان

يا ويلكم، أحلى صبايا قريتي قربان

ونحن نستطيع أن نبني السدود

من قبل أن يدهمنا الطوفان![1]

جاء العنوان كذلك دالا على الأسطورة، حيث جعل حبيبته من بين الفتيات اللواتي قدّمن قربانا فقير جمالهن وشبابهن في أحضان نهر النيل كإرضاء له ، فقد ضحى بهذه الحبيبة وقدمت طعاما للطحالب والأسماك ، فزينت وزفت كعروس، فراح الشاعر يصرخ ويقول:

يا ويلكم حبيبتي، لمن تزف ؟

إلا أن هذه التضحية غير مجدية بتاتا . يقول :

نقتلها، نحرمها، وبعد عام

تنزل فينا لعنة الطوفان

لما تقدم هذه الفتاة وتزين، مع أن الغضب والطوفان قد حلّ ولن يردع يمكن تجنب هذا الطوفان بالسدود، كما يمكن تجنب طوفان العدو بالنضال فها هي حبيبة الشاعر تغتصب ويبقى العرب يتفرجون ويتشتتون، والأجدر أن يتوحدوا يرجعوا حقهم الضائع من اليهود، وهذه الوحدة رمز إليها بالسد المنيع المحكم، وهو حل للقضاء على طوفان القهر والجبروت .

[1] سميح القاسم : ديوان " مجموعة أغاني الدروب " ، ص : 120-121.

ثانيا : توظيف الشخصيات التاريخية

لقد أدرك الشعراء أهمية توظيف الحوادث والشخصيات التاريخية في أشعارهم على اعتبار أن (التاريخ يدرس حياة الإنسان وارتباطها بالزمان والمكان)[1]، ولهذا استلهم الشعراء المعاصرون أحداث التاريخ وشخصياته، وجعلوا منه نسقا بنائيا ونسيجا إبداعيا مندمجا في شبكة العلاقات الدلالية التي ينتجها النص الشعري .

لقد وظف الشعراء الشخصيات بكثرة في دواوينهم الشعرية، إذ يتوجه الفنان إلى التاريخ بحثا عن المثل الأعلى، رغبة في التعويض العاطفي، وربما رهبة من وطأة زمن العجز الذي يحياه وهربا إلى أحضان الماضي الذي قد يبدو مجيدا أو مثاليا بالقياس إلى الحاضر.[2]

فالشعراء الفلسطينيون بصفة خاصة نهلوا من التاريخ شيئا وافرا للتعبير عن قضاياهم الوطنية والقومية والإنسانية العادلة ودافعوا عن كينونة الأمة التي ينتمون إليها، وقاوموا العدو الذي جردهم من أرضهم لكنه لم يستطع تجريدهم من تاريخهم فرسموا صورة الوطن في نفوسهم وأرواحهم قبل أن يرسموها في شعرهم، وكانوا حكاية الدم المسفوك الذي يرويه سفر النكبة وسفر التاريخ على حد سواء في قصيدة شعرية مجبولة بدمهم وبتراب الوطن، وبهذا فإن القصيدة حين تومئ إلى ما يقع خارجه ا من نصوص وأحداث مرويات، فإنها تفتح ميراثا وجدانيا ومعرفيا مشتركا بين الشاعر والجمهور، وتوقظ الذاكرة الوجدانية والجمالية للمتلقي وليبدأ نشاطه في استقبال القصيدة والتماهي معها .[3]

[1] أرسطو : فن الشعر ، ترجمة وتقديم وتعليق : إبراهيم حمادة ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، دط ، دت ، ص : 14 ، ص : 179.

[2] قاسم عبدة قاسم : الشعر والتاريخ ، مجلة فصول ، المجلد 3 ، العدد 2 ، يناير – فبراير – مارس ، 1983م ، ص : 236.

[3] جعفر العلاق : الشعر والتلقي ، دار الشروق ، عمان ، ط1 ، 1997م ، ص : 83.

دخلت الشخصيات التاريخية وهي محملة في الغالب بدلالات فكرية ونفسية عميقة بعد تحويرها، أو تعديها أو امتصاص مستوى واحد من التوظيف فقد تعددت شخصياتهم، وتعددت طرائقهم في استحضار الشخصيات التاريخية ما بين حضور موفق يتلاءم مع السياق الدلالي وحضور مفاجئ لا مبرر لوجوده ولا يستدعيه السياق حيث« يتم استدعاؤه من الذاكرة دون أن تختمر لدى الشاعر تلك الكيفية يستطيع بها عقد زواج شرعي بين السياق والرمز، وبالمقابل تظهر بوادر الرمز قبل حضوره في السياق لدى بعض الشعراء، مما يؤكد أن السياق الشعري إنما يستمد قوته وتدفقه ونكهته من هذا الرمز وهو ما يزال مغلق عنه فيكون حضوره بعد ذلك، تأكيد لهذه الدلالات وتعميقا لها في الوقت نفسه.»[1]، وبذلك يتسلل الرمز التاريخي في السياق الشعري بصورة تدريجية، تجعل من حضوره ضرورة يتطلبها السياق ليغتني بها ويكتنز بالدلالة .

لقد عكف الشعراء الفلسطينيون على توظيف الشخصيات التاريخية واستحضارها في متونهم الشعرية بكثافة جعلت منها مادة معرفية، ينعكس من خلالها الإعجاز الإنساني في صورة حركية، لا تقدس القديم بشخصياته وأحداثه بقد ما تتفاعل معه وفق رؤيا معاصرة، تعمل على إنتاج دلالات جديدة، ترتبط بروح العصر و تؤطر النص الشعري للكشف عن أحلام الجماعة وطموحاتها الإنسانية وبذلك تتمايز طريقة حضور هذه الإشارات التاريخية في الخطاب الشعري الجديد عن الخطاب الشعري الكلاسيكي .

إن نقل الشخصيات التاريخية من زمنيتها الماضية إلى زمنية الحاضر والتعبير عنه كانت الهم التاريخي الشعري الذي شكل ملمحا متميزا من ملامح الشعر الجديد وأضفى على التجربة الشعرية بعدا إنسانيا شاملا، وبهذا

[1] عبد الله راجع : القصة المغربية المعاصرة ، منشورات عيون الشمس ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1987 ، ص : 279.

تتشكل« زمنية آنية تختصر المسافة بين الصوتين، ليتلبس كل منهما صاحبه فكلاهما رهين موقف متأزم أشبهت ليلته بارحته ومع المشابهة في الموقف قد تنبثق مفارقة أو مفارقات بحتمية اختلاف الظرف التاريخي، فتتضاف فيما يشبه تنويعات على الفكرة الأولى»[1].

شذرات تحويرية تتسق مع الحالة المفارقة فيما يشبه تنويعات على الفكرة الأولى وبذلك تتفاعل الشخصيات التاريخية الماضية مع الشخصيات المعاصرة أو تتفاعل الماضي مع الحاضر لإنتاج دلالة جديدة تعبر عن صدى صوت الشاعر والجماعة وما يعتريهما من هموم وأحلام وطموحات .

تشتمل الشخصيات التاريخية العامة على عدة شخصيات أطلق عليها الدكتور علي عشري زايدي " الأنموذج التاريخي" مثل : الخليفة والملك والمماليك والتتار والسجان والجلاد والروم والفرس وكسرى وقيصر ...إلخ[2]، وقد شكل حضورها ملابسات الواقع الراهن واستنكاه أبعاده لخلق حالة فكرية أو نفسية جديدة تعمل على تعميق دلالات النص الشعري والانطلاق بها إلى آفاق إنسانية واسعة .

يستحضر سميح القاسم في قصيدته " العودة إلى جبل الله " شخصية قيصر باعتبارها رمزا من رموز القسوة والتنكيل وسرقة أراضي الآخرين وأموالهم كما يستحضر شخصية "المسيح " من خلال آلية القول : دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ويمزج الشاعر بين شخصية قيصر وقول المسيح عليه السلام للتعبير عن مأساة الواقع الفلسطيني الراهن في ظل الاحتلال الصهيوني متمثلا في قريتين فلسطينيتين احتلتا سنة 1948م هما " اقرث وكفر برعم " وغيرهما من المدن والقرى الفلسطينية الأخرى . يقول :

نبضنا على جبل الله

[1] رجاء عيد ، الأداء الفني والقصيدة الجديدة ، مجلة فصول ، مج 7 ع 2 – 1 ، 1986 ، ص : 59.
[2] علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص : 132 .

جيلا يجيء ويمضي وجيلا يجيء

نبضنا عتابا وزيتونة طيبة

وليمونة في صباح الحواكير تلمع

ومسكب خس ونعنع

ولو أطفأ الله مصباحه في أماسيِّه المتربة

نبضنا عنا قيد كرم تضيء

لجيل يجيء

على جبل الله جاءت كتائب قيصر

وراحت كتائب قيصر

وكان الجباة الغلاظ يقصون من لحمنا ..... ما لقيصر

وما للإله ... وأكثر[1].

يعكس الشاعر في الأبيات زمنا ملحميا يتجلى فيه الانكسار العربي في صورة بشعة ذات أبعاد فجائعية، تجعل كتائب قيصر والجباة الغلاظ يعيشون على لحم الفلسطيني، ويقطعونه إربا إربا ليقتاتوا به وهم في هذا لم يكتفوا بمقولة المسيح عليه السلام بل أخذوا ما لقيصر وما ليس له، وتجاوزوا ذلك إلى القتل وأكل لحوم البشر، كما يتجلى في الأبيات زمن الانتصار العربي والحضور الإنساني الفاعل متمثلا في حضور الفعلين "جاءت – راحت" وهذا يوحي بأن القيصر التاريخي الذي جاء لأرض فلسطين والعرب منتصرا، قد راح عنها مندحرا ومهزوما بقوة العرب والمسلمين وهذا بدوره يشير إلى ان القيصر الجديد المتمثل في صورة الاحتلال، سوف يؤول به الحال إلى ما آل إليه القيصر التاريخي وبهذا يتفاعل فيها الماضي

[1] سميح القاسم : القصائد ، دار الهدى ، كفر قرع ، مج 2 ، ط1 ، 1991م ، ص : 213.

بأحداثه وشخصياته مع الحاضر في علاقة تأويلية تستند إلى منطق التاريخ وسير حركته وتبدل دوله ورجاله في إشارة إلى أن دوام الحال من المحال .

إن استحضار جو التراث التاريخي في سياق الأبيات، ومحاولة تعديل بنيته بالنظر الاسترجاعي للزمن من ناحية، واستشراق الزمن واستباقه من ناحية أخرى يعبر عن يقين الذات الشاعرة في التخلص من قيودها ومأساوية واقعها خاصة أن نبض الإنسان الفلسطيني المتجلي في مظاهر الطبيعة والجغرافيا الفلسطينية منذ فجر التاريخ وحتى الأن مازال حيا حاضرا في كل ذرة من ذرات الوطن، يسقى بنسغة أشجاره ويمدها بالحياة والتواصل الإنساني جيلا بعد جيل ويضيء عتمة العالم التي تركتها وراءها الاحتلالات التاريخية لفلسطين ودمرت ضياءها، إن نبض الفلسطيني يبث الحياة في أشجار الزيتون رمز التجذر والتمسك بتراب الوطن ويضيء أشجار الليمون والحواكير وكروم العنب، ويجعل الشجر والبشر يتناسلون ليشكلوا جغرافيا الوطن الفلسطيني وأبعاده الإنسانية والحضارية التي سوف تكنس الاحتلال الصهيوني وتطهر الأرض من دنسه .

يجسد الشاعر في سياق الأبيات أماكن وشخصيات تاريخية وأدبية (الروم، حطين، كربلاء، العراق، فلسطين، ظلم ذوي القربى)، وهي ترتكز في إنتاج الدلالة على بنية التضاد التي تؤطر النص ، وتجعل دلالاته ذات أبعاد فجائعية حيث "الروم" بدلالاتهم التدميرية والاحتلالية، يتجاوزون الزمن العربي الإسلامي في صورة "حطّين" بدلالاتها الإشراقية وعدالتها الإنسانية المستقرة في الوجدان العالمي لكن الذي يوجع الذات الشاعرة ويقض مضجعها، وينغص عليها حياتها، ليس ما يقوم به "الروم" من تنكيل وتقتيل، لأن هذا الفعل يؤدي إلى صمود الأمة، وتمسكها بحقها، ويشد من أزرها، ويقوي ظهرها لمجابهة الأعداء، أما "ظلم ذوي القربى"، فهو الذي يمثل الفاجعة الحقيقية، التي لا تستطيع الذات الشاعرة تصويرها، وبذلك يأخذ

جزء من "الأنا" الجماعية على عاتقه دور "الآخر" في التنكيل والتقتيل بجزئه الآخر ويأخذ بعدا "تبادليا" مع الآخر في تدمير الذات الجماعية وسحق وجودها، وهنا تتجلى "كربلاء" باعتبارها قربانا من قرابين الحرية الإنسانية، ويتجلى "الحسين بن علي" باعتباره حاملا لعب النضال البشري، حيث يسير نحو جلجلته في رضى وسكون، بعد أن تخلى عنه أشياعه وتركوه وحيدا حاملا جلال قضيته، و نبالة إصراره على عدم التنازل، وبهذا يصبح "الحسين بن علي" بطلا تاريخيا، ويصبح موته مثلا يحتذى به في التضحية والفداء من اجل القضية التي آمن بها .

ولا يقف الشاعر عند تصوير الواقعة التاريخية وأحداثها التاريخية وأحداثها المأساوية فحسب لكنه يتجاوز ذلك إلى بث مضامين معاصرة، تجعل من قتل "الأنا" لنفسها جريمة كبرى تحققت على المستوى التاريخي، وما زالت تتحقق على المستوى الواقعي المعاصر حيث تشبه الليلة البارحة، ولذلك تحضر " بغداد وفلسطين " لتجسيد هذا الموقف النفسي الفاجع الذي يدين العصر وشخصياته ويؤكد رفض قتامة الحياة العربية المعاصرة، وكما "كنست" الإحتلالات التاريخية السابقة وطهرت الأرض من دنسها .

وقد شكلت شخصية الحسين بن علي وموقعة كربلاء، تراجيديا بالبطولة الساعية إلى تحقيق التغيير الحضاري في المجتمع الإسلامي في العصر الأموي لكن مقابلة هذه الثورة بالقمع والتقتيل أدى إلى فشلها، وإلى موت مأساوي لبطلها ومشعل وقودها "الحسين بن علي"، ولم يكن سبب هذا الفشل نقصا أو قصورا في دعوة صاحبها أو مبادئه وإنما سببها أنها كانت أكثر مثالية ونبلا من أن تتلاءم مع واقع ابتدأ الفساد يسري في أوصاله.[1]

[1] علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص : 121.

لقد كان "الحسين" صاحب قضيتين، سياسية وأخلاقية ضد الفساد الذي استشرى في المجتمع الأموي، ولذلك تسابق الشعراء ومنهم الشعراء الفلسطينيون في تصوير هذه الشخصية باعتبارها صاحبة قضية إنسانية كبرى تتسم بالأخلاق النبيلة، وترفض الواقع، وتقف وحيدة في أرض المعركة بعد أن تقاعس أشياعها عن نصرتهم والدفاع عن مبادئها النبيلة، وهي صورة تاريخية يمكن اعتبارها معادلا دلاليا السلبية الأمة وتخاذلها عن نصرة الحق والخير في العصر الحاضر، وبذلك سقط صاحب هذه الدعوة شهيدا من "شهداء الحب"، وهذا هو عنوان القصيدة، التي يوظف فيها سميح القاسم شخصية "الحسين بن علي" حيث تبرز "كربلاء" في القصيدة باعتبارها رمزا من رموز الدم العربي النازف في جسد العراق حتى اليوم، يقول :

في عقر دارك جزّ الروم ناصيتي وجاوزت خيلهم أبواب حطّين
لكن ظلم ذوي القربى أشد على روحي الجريحة من ظلم يقاويني
ما كربلاء ! وفي بغداد نازفة دماء شعبي من حين إلى حين
يادجلة الخير، فاجرف كل شائبة واسق المحبين، واغسل إفك مأفون
ويوم يرحم وجه الموت ذاكرتي أبكي عراقي أم أبكي فلسطين ؟ ![1]

كما شكل حضور " صلاح الدين الأيوبي " في الشعر الفلسطيني المعاصر، دلالات معاصرة تمتص الدلالة التراثية، وتتسم بحركية متجددة وقابلية مرنة للدخول في علاقات جديدة متعددة الأبعاد، ومن ذلك قصيدة الميلاد لسميح القاسم التي يحشد فيها عدة رموز تاريخية هي " هولاكو، الصليبيون، صلاح الدين، حطين "، التي تشكل بؤرة الأبيات ومرتكزها الذي يقوم عليه إنتاج الدلالة يقول موجها خطابه الشعري إلى أبيه:

[1] سميح القاسم : القصائد ، ص : 393 – 394.

أبي ..... لا كتبنا الملقاة تحت نعال هولاكو

ولا فردوسنا المردود فردوسا إلى أهله

ولا خيل الصليبيين

ولا ذكرى صلاح الدين

ولا جندينا المجهول في حطين

تشد خطاي للأنقاض، للمنفى

فمن حبي لأطفالي

أشيد مصانعا كبرى [1]

يتبدى من الأبيات استنادها إلى بنية "النفي" المتبوعة برمز تاريخي سلبي يشكل نسيجا متوازيا أو متقابلا لرمز تاريخي إيجابي، بمعنى أن انفتاح الشاعر على "هولاكو، الصليبيون" بدلالاتهما السلبية، وطبيعتها التدميرية للثقافة والمقدسات الإسلامية، يوازيها في الحضور الشعري والثقل الدلالي على المستوى الإيجابي الدال على التوهج الحضاري " صلاح الدين، حطّين" ثم يتداخل الرمزان في صفيره واحدة تفر من قبضة الزمان والمكان، ويتجاوزهما باعتبارهما بعدين غير مؤثرين على سلوك الذات الشاعرة وفعلها الحضاري المتشبث بالأرض وتراب الوطن، وهذا يدل على قدرة الشعر على تحويل الزمن إلى لا زمن، ينفصل فيها الزمن عن الذات، فرغم الطبيعة التدميرية أو الطبيعة الإنسانية لطرفي المعادلة فإن الذات الشاعرة تعرف طريقها، وتحدد سلوكها، وتخلق رؤيتها التصويرية المنفصلة عن الأحداث التاريخية والزمان والمكان، وهي عدم القبول بالمنفى أو الرحيل باتجاهه والخروج من الوطن، وتتقدم الذات الشاعرة خطوة أخرى في سبيل الوعي برغبتها في بناء " المصانع الكبرى" وتشييدها على أرض الوطن باعتبارها رمزا آخر

[1] سميح القاسم : القصائد ، ص : 167 – 168.

من رموز الالتصاق بالأرض والاستقرار عليها، وتقف ضد عمليات الاقتلاع والتهجير والنفي والعزل ومصادرة الحياة، التي تمارسها قوات الاحتلال ضد الشعب الفلسطيني وبهذا يصبح الإنسان خالقا للتاريخ، أو بتعبير أحد الباحثين يصبح الإنسان فاعلا تاريخيا سواء كان واعيا بدوره التاريخي أولا.[1] وبهذا استطاع الشاعر إعادة إنتاج الماضي بما يتوافق مع ثوابت الحاضر وأبعاده الموضوعية .

وصل المد الشيوعي ومبادئ الاشتراكية اللينينية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين إلى ذروته في البلدان العربية، ومنها المجتمع الفلسطيني، وخاصة في فلسطين المحتلة سنة 1948م، وكان من نتائجه تأسيس الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي انضوى تحت لوائه عدد من الشعراء الفلسطينيين منهم سميح القاسم لما تتسم به مبادئه من دعوة إلى حرية الشعوب واستقلالها، وكان هو الصوت الوحيد في داخل إسرائيل الذي يدعوا إلى السلام مع العرب، وحقهم في العيش بكرامة، وقيام دولة فلسطين حسب مقررات الأمم المتحدة، لكن انتماء هؤلاء الشعراء للحزب الشيوعي كان مثار جدل واتهام وطعن في انتمائهم الوطني والعربي، إن طبيعة الحياة العنصرية التي مارستها قوات الاحتلال الصهيوني على من بقي من عرب فلسطين متمسكا بأرضه وبيته ولم يقبل الهجرة والمنفى كانت السبب في هذا الانتماء الجدلي .

استدعى سميح القاسم في قصيدته " إلى ميخائيل غورباتشوف " شخصية لينين جاعلا " لينين" يقف موقفا إيجابيا يغبط فيه " غورباتشوف" على ما قام به في "البروستاريكا" من ابتعاد عن الصيغ المستعادة والنظرة الواحدة، وهي إشارة موحية تشير إلى إيمان " لينين" بالقوميات التي كانت يكون منها الاتحاد السوفياتي

[1] قاسم عبده قاسم ، الشعر والتاريخ ، ص : 235.

وباختياراتها القومية أو السياسية ، التي رفضها "ستالين" عندما تولى رئاسة الحزب البلشفي والاتحاد السوفياتي فيما بعد يقول :

إن لينين يحدجك الآن مغتبطا

راضيا عن رضاه

هل تراه

جبهة تتألق عالية في سماء الجباه

لا يريد الشفاه

لا يريد الغبار

إنه واثق من رؤاه

واثق من خطاه

لم يزل حالما بانقلاب المدار[1]

لقد كشف غورباتشوف بدعوته إلى تحرير القومية الروسية من عقال الاتحاد السوفياتي عن رؤيا إنسانية، كانت تشكل رغبة لينين في حرية اختيارات الإنسان، أي أنه أنجز بطريقة علمية حلما من أحلام " لينين" تحلقت حوله الأبيات، وشكل نقطة الارتكاز الرئيسية التي انبثقت منها هذه الدلالات مستخدما أساليب فنية ولغوية، تؤكد هذا البعد وتعزز حضوره في جسد النص، ولهذا كان التوكيد بالحرف "إن" وتوظيف صيغة "النفي" خاصة، قد أوصل الشفرات التي تتردد في ثنايا الأبيات إلى حتمية النهاية، التي تمثل تحقيق الحلم بانقلاب المدار.

[1] سميح القاسم : القصائد ، ص : 366.

ثالثا : توظيف الأحداث التاريخ سطورية

تطرقت الأسطورة لمواضيع متنوعة وكثيرة مما أدى إلى تنوع تعاريفها فالباحثون صنفوها إلى أساطير، طقوسية وتعليلية، وتعليمية ورمزية والتاريخ سطورية وهي ما يهمنا في موضوع بحثنا، إذ أنها عبارة عن أحداث تاريخية وقعت بالفعل في الواقع ولكنها استمدت صفات عظيمة جعلت منها حدثا اسطوريا، وتناقلت بالتواتر من جيل إلى جيل على شكل توتر درامي، ومثال ذلك نجد يشوع بن نون وهو شخصية تاريخية استقت أسطورتها من قوة وبطش وأصبحت نموذج يضرب به المثل في القسوة والعنف، يشوع بن نون هو نفسه يهوشع في قصيدة سميح القاسم، وهو قائد عسكري يهودي عبر الأردن من شبه سيناء، واحتل أريحا وأحرقها ... وكان بعد موسى عبد الرب، أي أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا {موسى عبدي قد مات فالأن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر فرات جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم }.[1]

« العهد القديم – يشوع – الأصحاح الأول »

يقول سميح القاسم :

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة يهوشع مات " ، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1973م ، ص : 99.

يا حائرين في مفارق الدروب!

لا تسجدوا للشمس

لن يرقى لها صدى صلاتكم

بينكم وبينها سقف من الذنوب

لا تسكبوا الدموع، لن ينفعكم ندم

الشمس في طريقها ... راسخة القدم

لا تركعوا ... لا ترفعوا أيديكم إلى السماء

تدمرت واندثرت أسطورة السماء

وأطرقت على متاه بؤسكم جنازة الهباء

يا حائرين في مفارق الدروب !

أغواركم خاوية ... إلا من الخواء

صلاتكم خاوية ... إلا من الخواء

يا ويلكم ياويلكم

سرعان ما تغوص في أعماقكم

أظافر الغروب !

*** * ***

يهوشع مات

فلا تستوقفوا الشمس، ولا تستمهلوا الغروب

سور أريحا شامخ في وجهم إلى الأبد

يا ويلكم يا ويلكم !

سرعان ما تغوص في أعماقكم

أظافر الغروب

يهوشع نحا، راح ... ولن يؤوب

يهوشع مات !![1]

وظف سميح القاسم أحداث تاريخية، وقعت كاحتلال أريحا وحرقها من طرف بطل أسطوري يهوشع الذي راح يصوره على أنه إله من آلهة الشمس، قوي، باطش، حقود، لا مكان للرحمة في قلبه، هو أسطورة عظيمة لكنها لم تدم، فقد دمرت واندثرت ، فأصبحت كل ما قدم وفعل لهذه الأسطورة هباءا منثورا، فماذا ينفع بعد موت يهوشع ؟، لن تصفح أريحا عنكم، وعن ما فعل بها من نهك وحرق، فالقادم آت فاستعدوا ها هي العبرة أمامكم قائدكم يهوشع رغم جبروته وقوته كانت نهايته الهلاك والموت .

لن تنفعكم صلاتكم ولا عبادتكم، أو حتى دموعكم لن توصلكم لبحر النجاة، فما ارتكبتموه من ذنوب ومعاص بحق الأبرياء ستدفعون ثمنه .

كما جاءت قصيدة بابل التاريخية ولشهرتها اتخذت شكل الأسطورة، بابل هي حضارة كل الشعوب وسبب فرقتهم في الأرض فبعد الطوفان شرع نسل نوح في بناء برج بابل قصد أن يجمعهم مكان واحد من الأرض، فلا يتبددون، وتكون عاصمة لهم وليقيموا لأنفسهم اسما ومجدا دلالة على كبريائهم وتشامخ نفوسهم، إلا أن الرب كان يقصد بالطوفان انتشارهم وتفرقهم لتعمير الأرض، كان يدور في خلد بنائية أن يوصلوا البرج إلى السماء وهو نوع من الجهل والخنوع .

يقول سميح القاسم :

أنا لم أحفظ عن الله كتاب !

أنا لم أحفظ عن الله كتاب

أنا لم أبني لقديس قبابا

[1] سميح القاسم : ديوان " قصيدة يهوشع مات " ، ص : 100 – 101.

أنا ما صليت ... ما صمت ... وما

رهبت نفسي لدى الحشر عقابا

والدم المسفوك من قافيتي

لم يراود من يدي عدن ثوابا

فهو لو ساءلته عن مطمع

مارتضى إلا فدى النور انسكابا

*** * ***

غضبتي ... غضبة جرح أنشبت

فيه ذؤبان الخنا ظفرا ونابا

وانتفاضاتي عذاب ... ودَّ لو

رد عن صاحبه الشرق عذابا

وأنا أؤمن بالحق الذي

مجده يؤخذ قسرا واغتصابا

وأنا أؤمن أني باعث

في غدي الشمس التي صارت ترابا

فاصبري يالطخة العار التي

خطها الأمس على وجهي كتابا

وانظري النار التي في أضلعي

تهزم الليل وتجتاح الصبايا

شعشعت في آسيا فاستيقظت

وصحت إفريقيا ... غابا فغابا![1]

[1] سميح القاسم : ديوان "بابل" ، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1973م ، ص : 60 ، 61.

* * *

يا حمام الدوح ! لا تعتب أسى

حسبنا ما أجهش الدوح عتابا

نحن لم نزجرك عن بستاننا

لم نحكم في مغانيك الغرابا

نحن أشباه وقد أوسعنا

غاضب الأعشاش دالا واغترابا

فابك في الغربة عمرا ضائعا

وارث عيشا كان حلوا مستطابا

على نار الجشو تذكي نخوةً

في الأولى اعتادوا مع الدهر المصابا

فتهد اللحد عنها جثثٌ

ويمور البعث شيبا وشبابا

* * *

يا قرى ... أطلالها شاخصة

تتقرى غائبا أبكى الغيابا[1]

يا قرى بؤسي ترى أحداثها

أن في النسل جراحا تتغابى

يا قرانا ... نحن لم نَسْلُ ... ولم

نغدر الأرض التي صارت يبابا

خصبها يهدر في أعراقنا

[1] سميح القاسم : ديوان "بابل" ، ص : 61.

أملا حرا، ووحيا، وطِلابا

والذرى تشمخ في أنفسنا

عزة تحتطب البغي احتطابا!

*** * ***

يا بلادا بلّلت كل صدى

وصداها لم يرد إلا سرابا

يا بلادي نحن مازلنا على

قسم الفدية شوقا وارتقابا

يا بلادي ! قبل ميعاد الضحى

موعد ينضو عن النور حجابا![1]

نكبة التيه التي أودت بنا

فطرقنا في الدجى بابا فبابا

عمّقت سكّينها في جرحنا

وجرت في دمنا سما وصَابا

وتهاوينا على أنقاضنا

فخراب ضم في البؤس خرابا

ومن الأعماق ... من تربتنا

هتف التاريخ ... والمجد أهابا

فإذا أيامنا مشرقة

بدمٍ ... من لونه أعطى الترابا

وإذا روما نداء جارح

[1] سميح القاسم : ديوان "بابل" ، ص : 62.

طاب يوم النار يا نيران طابا !

*** * ***

أيها العاجم من أعوادنا

نحن ما زلنا على العجم صلابا[1]

فاسأل البرج الذي عذّبنا

كيف ألّبنا على الجرح العذابا

نكبة التيه التي سدّت بنا

كل أفق ضوَّأت فينا شهابا

فأفاقت من سبات أعينٌ

وُلِد الدَّهر عليهنَّ وشابا

واشرأبَّت في المدن ألويةٌ

خفقت في الأربع الجرد سحابا

وعلى وقع خطانا التفتت

أمم أغضت هوانا واكتئاب

ورؤانا أخصبت فاخضوررت

أعصُرٌ ناءت على الشرق جِدابا ؟

*** * ***

سَعَفَاتُ الشمس من غاياتنا

فازرعي يا أمتي الليل حِرابا[2]

وإذا الأسداف أهوت جثثا

[1] سميح القاسم : ديوان "بابل" ، ص : 63.

[2] المصدر نفسه ، ص : 64.

وإذا أحنى الطواغيتُ رقابا

وإذا فجرت أنهار السنى

وسنون الجدبِ بدِّلن خصابا

فانشرب النور على مدى

وابعثي أمجاده عجباً عجابا

نحن أحرى مستجيبا إن دعا :

من يُفَدِّي ؟ وهو أحرى مستجابا ![1]

فطوفان بابل بدّل الشعوب وجعل نسلهم يتكاثر وينتشر عبر أقطار الأرض المختلفة، والخيرات تعمر الأرضي، فبزغ نور في كل مكان بعد أن زال الظلام الفجار .

فكل ما حدث ببابل قبل الطوفان وبعده يشبه ما حدث ببلاد الشاعر من دخول الطغاة وازدياد جهلهم وفجورهم من إبادة وقتل وحرق للبشر، فما احدثه الطوفان من دمار وشتاة هو ما أحدثه المستدمر الصهيوني بأبناء فلسطين من سياسات تعذيب وتجويع وتنكيد وطرد وشتاة من أراضيهم ولجوء بأراضي الغير والتغرب عن الأهل والأوطان، والحزن والمعاناة والحنين .

كما برزت مدينة كرمائيل التي تمثل مدينة للحقد والجوع والجماجم لكثرة الدماء التي أصبحت كالفيضانات تغرق المدينة وراح الجوع يأكل العظام وينخرها وكل هذا سببه الحقد والغل والعداء الغير مبرر، كل ما يحدث هنا وهناك لا يمد للإنسانية بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد، لقد أعطت أبشع الصور للجريمة الشنعاء .

[1] سميح القاسم : ديوان بابل ، ص : 65.

يقول سميح القاسم :

تحداهم صالب تافه

يغطي الشموس ... ببعض رداء ![1]

كما لعب الزنجي المعذب باتريس لومومبا شاعر الحرية ورسولها في مجاهل غابة الكونغو دور مهم دخل به التاريخ وأصبح رمزا يحتذى به للمطالبة بالحرية والسلام في أرجاء المعمورة .

[1] سميح القاسم : الديوان "كرمائيل" ، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1973، ص : 90.

الفصل الثاني

التراث الأدبي والشعبي

أولا : تضمين النصوص الأدبية .

ثانيا : توظيف الأغنية الشعبية .

ثالثا : توظيف الحكاية الشعبية .

يعتبر التراث الأدبي فكر وسلوك الأمم، اعتني واهتم به بشكل كبير في العصر الحديث، ووظف في قصائدهم بطرق مختلفة وجديدة غير معهودة، يتم من خلالها استدعاء نصوص شعرية دون التلميح لها، لشعراء محفورين بالذاكرة أمثال المتنبي، وعنترة بن شداد، والشنفرى ....الخ، الأمر الذي أكسبها قدرة خاصة على التعبير عن تجربة الشاعر في كل عصر.

كما يعتبر التراث الشعبي ثروة كبير في الآداب والقيم والعادات والتقاليد والمعارف الشعبية، فيما خلفه الأجداد لكي يكون عبرة من الماضي، ونهج يستقي من الأبناء الدروس ليعبروا بها من الحاضر إلى المستقبل، فالتراث حضارة وهو أيضا الجذور في الشجرة فكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمان.

والتراث الشعبي عادات الناس وتقاليدهم وما يعبرون عنه من آراء وأفكار ومشاعر يتناقلونها جيلا عن جيل، ويتكون الجزء الأكبر من التراث الشعبي من الحكايات الشعبية مثل الأشعار والقصائد المتغنى بها وقصص الجن الشعبية والقصص البطولية ويشتمل التراث الشعبي أيضا على الفنون والحرف وأنواع للرقص واللعب واللهو والأغاني أو الحكايات الشعرية للأطفال والأمثال السائرة، والألغاز والأحاجي والمفاهيم الخرافية والاحتفالات والأعياد الدينية.

تستخدم مواد التراث الشعبي والحياة الشعبية في إعادة بناء الفترات التاريخية الغابرة للأمم والشعوب، وتستخدم أيضا لإبراز الهوية الوطنية والقومية والكشف عن ملامحها .

التراث والمأثورات التراثية بشكلها ومضمونها أصيلة ومتجذرة إلا أن فروعها تتطور وتتوسع مع مرور الزمن، للتراكم الثقافي والحضاري يد في ذلك. [1]

[1] ينظر سعيدي محمد : الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، دط ، دت ، ص : 55 – 56 .

أولا : تضمين النصوص الأدبية

حدد القاسم موقفه من التراث الأدبي العربي في قصائده المختلفة فهو يعده المنبع والمنهل الذي يستلهم منه شعره، لذا عدّ نفسه امتدادا لتلك القمة العربية الشامخة المتمثلة بأبي تمام حين قال : «لست امتدادا لأبي تمام فحسب ففي الطريق الطويل من منزل أبي تمام إلى منزلي شربت من آبار كثيرة، وشاركت شعوبا كثيرة زادها و لبوسها ولغاتها وأشعارها، ويا أبا تمام يريدني البعض أن أستبدلك بالسيد المحترم ت.س إليوت، وخسئوا ... فلا أنت بالعب الملول ولا إليوت بقادر على المعيشة في بيئتي ومناخي»[1].

وقد استلهم القاسم الرموز الأدبية مثل الشنفرى والمتنبي وغيرهما ووظف صورا من التراث الشعري العربي ومعانيه في قصائده، واتخذ منها أقنعة ينفث فيها ما يمشي مع حاضرها أحيانا، وثباتها في الماضي أحيانا أخرى، وفي هذا دلالة على الاتصال المستمر لحركة الشعر العربي ومسيرته عبر العصور المختلفة.

كما تدل أيضا على الجذور العميقة التي تصل الحركة الشعرية المعاصرة بأعماق التراث الشعري العربي.[2]

ويشكل التواصل مع التراث وتوظيفه في القصيدة المعاصرة علاقة حلولية متبادلة بين زمنين الماضي والحاضر، لا يحضر الماضي فيها باعتباره مصدرا من مصادر الاحتذاء والتقليد والتكرار، بل باعتباره مصدرا للابتكار والتجديد والدهشة حيث تعاد صياغة النص الشعري الموروث، وفق رؤيا جديدة معاصرة، وتفتح له آفاقا واسعة من التأويل والكشف.[3]

وقد تجلت هذه الظاهرة في الشعر الفلسطيني بعامة ،وفي شعر سميح القاسم بصفة خاصة ،حين استلهم الشعر العربي القديم والحديث، ووظفه

[1] سميح القاسم : الحماسة ، ج1 ، منشورات مكتب الأسوار ، عكا ، دط ، 1978 ، ص : 10 – 11 .

[2] سميح القاسم : جهات الروح " قصيدة انتقام الشنفرى " ، منشورات عرب سك ، حيفا ، دط ، 1983 ، ص : 5 – 6 .

[3] . موسى ابراهيم نمر : أفاق الرؤيا الشعرية ، " دراسات في أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر " ، وزارة الثقافة ، الهيئة العامة للكتاب ، دط ، 2005 ، ص : 129 ،

توظيفا يكشف من خلاله أبعاد الواقع ،ويضيء جوانبه ؛فقد عدّ المتنبي واحدا من العائلة[1] يشاركه في نسبه الذي ينتهي إلى القرامطة.[2]

ووظف تراثه الشعري واستلهم بعض معانيه التي تلقي الضوء على معاناة شعبه وحال أبناء أمته العربية، فقد ألحت عليه صورة أبي الطيب التي صور بها حال المصريين في أثناء حكم كافور الإخشيدي في قوله:

نامت نواطيرُ مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد[3] .

يقول سميح القاسم :

النواطير في بلادي نيام فاشهدي ثعلب العناقيد رائع[4].

إن تشابه الحالين في ماضي الأمة العربية وحاضرها قد ألح على الشاعر ،فوجد في تعبير المتنبي وصورته التي رسمها لها في الماضي ما يفي بغرضه في توضيح الصورة الراهنة وإبراز معالمها مستخدما الرمز القديم بإيحاءاته المختلفة ،لتعميق الدلالة وتفعيل دورها في تنبيه المتلقي والتأثير فيه ،وحور الشاعر في بعض ألفاظه لأن الأهمية لا تكمن في اللفظة وحدها ،وإنما تكمن في الدلالة التي شحنتها ومنحتها البروز والتوهج في بيت القاسم ،فهو يستخدم جملة خبرية تؤكد حالة السبات العميق الذي يغط فيه النواطير ،كما يستخدم فعل الأمر اشهدي الدالة على الإحساس بالمرارة والتوق للخلاص، وقد استلهم الشاعر المعنى في قصيدة " ودم الشهيد رسالة نبوية"

إذ يقول:

يا كفر قاسم ... عز جرح ناغز في صدرك العاري وعز البلسم
ومن الأولى تركوك صدرا عاريا ومن الأولى سفكوا دماء من همُ
أهم الغلاظ الغبر غل غليلهم أهما يداي ...؟ سألت لكن أعلم
قست الثعالب، والكروم مباحة وقسا نواطير الكروم النوَّمُ

---

[1] . طه المتوكل وآخرون : لقاء مع سميح القاسم ،المتنبي واحد من العائلة الشعراء ،المركز الثقافي الفلسطيني . بيت الشعر . ، فلسطين ، شتاء ، دط 1999 ، ص :144 .

[2] . سميح القاسم : الحماسة ج3 ، ص 79 .

[3] . المتنبي ، أحمد بن الحسين ، ديوان المتنبي ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، د ت ، ص : 507 .

[4] . سميح القاسم : الحماسة ج 3، ص : 68 .

فقد وظف القاسم «الملفوظ الأدبي للمتنبي ... حيث تعبر الذات الشاعرة من خلاله عن علاقة مشابهة بين حالة مصر التي يسرق خيراتها الثعالب كرمز للعبيد من جهة وأسقطها على حالة فلسطين التي سرقها الثعالب كرمز للإحتلال من جهة أخرى، وبهذا نكون أمام تجربتين مختلفتين زمنيا، لكنهما متشابهتين دلاليا»[1].

وفعل الشاعر الشيء ذاته حين استحضر كنية كافور التي وردت في قول المتنبي:

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقا إليه وذا اليومُ الذي كنت راجيًا[2]

يقول سميح القاسم :

وأبو المسكِ سادرٌ في الخيا ناتٍ وفينا يفتِّحُ العميانُ![3]

فقد أطلقها الشاعر على السادات للتعبير عن موقفه السياسي في سايكس بيكو كغيره من شعراء العرب المعاصرين الذين استغلوا "موقف المتنبي من كافور وحملوه بالكثير من الدلالات السياسية."[4]

ويرى إبراهيم نمر موسى "أنّ حضور شخصية المتنبي تعدّ وسيلة مزج الشاعر الفلسطيني من خلالها بين تجربتين، واستنطق ملفوظها الشعري مما أضفى في كثير من الأحيان قوة تأثير إضافية على صوت الشاعر المعاصر وأصبحت قصيدته تعج بأصوات لها مجدها الشعري وبريقها الإبداعي."[5]

وهكذا يتداخل التناص في بنية القصيدة مع التاريخ كما يتداخل مع الشعر العربي حاملا دلالات مختلفة من شأنها أن تفاجئ المتلقي وتثير انتباهه، ومثل هذا ما نراه في قول الشاعر :

أطلقت للأسرار كوكب فكرة إنسية فانجابت الأسرار [6]

---

[1]– موسى إبراهيم نمر : آفاق الرؤية الشعرية ،«أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص : 139 .
ص : 139

[2]– المتنبي أحمد بن الحسين : ديوان المتنبي ، دار الجيل ، بيروت ، ص : 443.

[3]– سميح القاسم : الحماسة ، ج3 ، ص : 15.

[4]– زايد علي عشري : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، ص : 174.

[5]. محمود سامي البارودي : ديوان البارودي ، ج1 ، ضبط وشرح وتصحيح : محمود الإمام المنصوري ، دط ، دت ، ص : 23 .

[6]– موسى إبراهيم نمر ، آفاق الرؤية الشعرية ،«أنواع التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر » ، ص : 136.

متأثرا ببيت البارودي الذي يقول فيه :

وإنّي إذا ما الشك أظـلـم لـيلـهُ وأمست به الأحلام حيرى تشعّب

صدعتُ حفافَيْ طرّتيهِ بكوكب من الرأي لا يخفي عليه المغيب

إنّ فكـر لينـين الـذي يتسـم بالدقـة والصـحة والوضـوح حسـب رأي الشـاعر، قـد اسـتدعى قـول البـارودي الـذي يفخـر بنفسـه، ويعتـز برأيـه السـديد وقولـه الفصـل حين تدلهم الأمور وتحار العقول .

" شـعر القاسـم كسّـر قيـود الزمـان مثلمـا عبـر حـدود الجغرافيـا فـلا هـذه اسـتطاعت أن تعيـق شـعره عـن التراسـل مـع الأجيـال المتلاحقـة، ولا تلـك الجـدران الوهميـة ولا الحقيقـة قـدرت علـى منعـه مـن التواصـل مـع العـالم، فـي شـعره بهـاء القـديم والـرميم وفيـه حيـاء التجريـب والتغريـب، فيـه عنـاد الشـنفرى، وحمـاس أبـي الطيّب، وذكاء حبيب بن أوس، ورقة ابن زريق ..."[1]

[1] طه إبراهيم ، " تلك جمجمة الشنفرى " قيمة الجمال وجمال القيمة في شعر سميح القاسم ، دار الهدى للطباعة والنشر ، كفر قرع ، دط ، دت ، ص : 298.

ثانيا : توظيف الأغنية الشعبية

تعتبر الأغنية الشعبية لسان الشعب عن همومه وأفراحه فهي تعد سفيره الأول إلى العالم الخارجي، لاعتنائها بكل ما يهم الشعب وغالبا ما كانت تتغنى بقضايا الطبقة الكادحة والفقيرة والعاملة، فالأغنية الشعبية مرتبطة بالشعب البسيط لا بالغني، لقربها منهم ومعالجتها مواضيعهم، وتنادي بالعدالة الاجتماعية والتساوي . فالأغنية الشعبية أداة للتخفيف عن الكرب بسرد المآسي والمعاناة، أو بتمرير الوقت كما هو الحال عند الرعاة والبد الرحل، أو للتعبير عن الفرح في المناسبات والأعراس، فراحت تتغنى بها الجماعة وتتناقلها جيلا عن جيل .

والأغنية الشعبية الفلسطينية هي عبارة عن ذاكرة وتاريخ شعب مقاوم مناضل، تناقلوها شفهيا بلهجة دارجة للحفاظ على تاريخ القضية فكانت تتغنى بالثورة والثوار، وتهجو المستدمر والاستدمار وما خلفه من قتل وتهجير وأخطار كما مجدت العادات والتقاليد والشهداء الأبطال وحافظت على أسماء المدن والقرى التي حورها الإسرائيلي تميزت بالبساطة في معانيها وألفاظها وتراكيبها لأنها من إنتاج الشعب وموجهة للشعب، فجاءت عفوية مخاطبة جمهور بسيط، سريعة الانتشار والذيوع لأنها مرآة المجتمع تصور واقعه المعاش وعن تجارب وأحاسيس متوارثة عبر الأجيال.[1]

فكانت القضية الموضوع الأكثر حساسية وتداولا لما خلفته من معاناة الشعب وجوعه وفقره وشتاته.

والأغاني الشعبية أغاني متنوعة يصعب تصنيفها منها ما يغنى بالأعراس والسهرات، ومنها ما يغنى بالمناسبات كالنجاحات الدراسية والحج ومنها ما يغنى عند جني المحصول الزراعي.

ومن أشهرها العتابا والدلعونا والجفرا والمشعل والأوف والميجانا، وظريف الطول وأغزيل والجفرا والسجحة والسامر والتشاويف الدينية، والبكائيات وأغاني الأطفال وغيرها...

[1] ينظر خليل إبراهيم حسونة : التراث الشعبي الفلسطيني "ملامح وأبعاد" ، مكتبة اليازجي ، غزة ، دط ، 2002 ، ص : 16.

فالأغاني الشعبية حظيت بإقبال شعبي كبير لسهولتها وسلاستها وهذا ما جعل سميح القاسم يكتب على منوالها.

يقول سميح القاسم في قصيدته " أصوات من مدن بعيدة ":

يا رائحين إلى حلب
معكم حبيبي راح
ليعيد خاتمة الغضب
في جثة السفاح
يا رائحين إلى عدن
معكم حبيبي راح
ليعيد لي وجه الوطن
ونهاية الأشباح
يا رائحين، وخلفكم
عينا فتى سهران
مازال يرصد طيفكم
قمر على أسوان.[1]

الشاعر هنا يتأمل الوحدة العربية لتحرر فلسطين، فالثورة لن تكون فلسطين وحدها بل في كل من سوريا واليمن ومصر، ليتم القضاء على عدو سفاح، فهو يناجيهم ويدعوهم للحفاظ على فلسطين واستردادها من الغاشم فهي حضارة مثلها مثل حضارة الشام واليمن ومصر لها عراقتها وتاريخها وهي تمثل كل العرب، ويترجاهم بعدم الخذلان وإنهاء هذا الشبح ببتره وبتر شروره.

وأصل الأغنية قبل أن يحورها سميح القاسم هو:

يا رايحين ع حلب حبي معاكم راح
يا محملين العنب فوق العنب تفاح
كل حبيبته معه وأنا حبيبي راح

[1] سميح القاسم : ديوان " أصوات من مدن بعيدة " ، ص : 353 – 354.

يا رب نسمة هوا ترد الحبيب لنا [1]

تعبر الأغنية الأصلية عن لوعة الفراق بين الأحبة، فحورت لتعبر عن الوطن والقومية العربية والحق في استرجاع الأصل والهوية.

كما يصور الشاعر بشاعة الاغتراب وتشرد الفلسطيني وافتقاده لحظن وطنه الأم الدافئ ونسيمه وماءه وأرضه وسماءه، فيقول سميح القاسم في قصيدته بعنوان " مغني الربابة على سطح من الطين":

على سطح من طين
تئن ربابة المأساة، في كفين من حجر
فتسقط أدمع القمر
ويصعد صوت محزون
ينادي الأخوة الغياب
في دنيا بلا خبر
يناديهم، مع اللحن الفلسطيني:
طلع العشب عسطوحكو .. ويبس العشب
يللي عحد الأرض مرميين
يا ريت تيجوا تطلطلوا عالتين
وتجبرو المشخرة .. أفلام العنب
يا ريت تيجو، ترشقو لبيوت
وتصلحوا لبواب والسدّة
أو تنشلوا حفنة مّي للوردة
وتمشطوا عنها أوراق التوت
يا ناس ! بردت دلة القهوة
ومعزب الرحمن واقف للسلام
بدُّو يزغرت عش عالسروة

[1] خليل إبراهيم حسونة : التراث الشعبي الفلسطيني "ملامح وأبعاد" ، ص : 28.

ويصيح .. طلوا يا هلا !.. برج الحمام !
غناؤك يا غريب الأهل
طال وطالت الأيام!
وأورقت الربابة في يديك
وشاخت الأنغام
فهل ستظل طول العمر محروما تناديني
مع اللحن الفلسطيني؟
وهل ستظل طول العمر، تشحذ عودة هرمت؟
على سطح من الطين؟؟.[1]

هاهو شاعرنا يعزف ويحسن العزف على ربابة الحزن التي تبكي الغربة وما فعلته بأبناء فلسطين، حرمتهم مالهم وأرضهم الطيبة الخصبة أرض الخيرات والبركات أرض الزيتون والتين جفت وقحلت وشجرة الزيتون عقمت والعشب يبس لفقدان من يعتني بها والسدة ملأت البيوت المهجورة، فبعد الغريب طال وطالت أيام غربته، وبغيابه مات كل ما هو حي، حان الوقت ووجبت العودة واسترجاع ما ضاع، وإعادة بعث الحياة ونفخ الروح، بغرس الحياة وسقيها وإنمائها من جديد، آن للقمر أن يبتسم وأن يرتاح صاحب الربابة من عزف المآسي والبدء بعزف الأهازيج والأفراح .

وبهذا نجد أن الشاعر قصد من هذه الأبيات حال فلسطين وما آلت إليه من جراء وطأة الاحتلال، من اختناق واغتصاب وفجور وتنكيل واستباحة دماء الرضع والعجزة والنساء والرجال الصغار والكبار، فهاهي فلسطين تنتظر بحزن وخوف، فقد شاخت الأنغام وتجددت الأحلام في ظل هذا الانتظار.

فالشاعر يسند الكلام لضمير الجماعة « تيجوا، تطلطلوا، تجبروا، تصلحوا، تنشلوا، تمشطوا» يعبر عن الوعي الجماعي، فالشاعر يتشارك مع الإنسان المنكوب في نكبته ومعاناته، وله وقع على النفس، ويكشف عن مظهر التواصل والتلاحم.

[1] سميح القاسم : ديوان " مغني الربابة على سطح من الطين " ، ص 224 – 225 – 226 .

فالشاعر ظل ينادي ويؤكد على الأحقية غي الأرض والرجوع بقوله : " ياريت تيجو " و" ستظل طول العمر والتواصل وعدم الإفراط والتفريط في حق مشروع رغم الفراق المر والصعب وماسيجده من تعذيب وتجويع، فهذه أرضه وهنا وطنه وأصله.

فسميح القاسم خلال استحضاره للأغاني الشعبية لم تكون غايته الكتابة وفقط أو للإقتباس المحض بل كانت وسيلة لتعبير عن مكنونات دفينة دفن الهواء عن أزمنة تخنقه وتكتم أنفاسه، تعنيه وتهمه كما تعني وتهم شعبه .

يقول سميح :

هذه القنطرة الباقية منك يامنازل جدي

تبرعت بها جدتي للثوار ليشتروا بندقية

سأطليها بماء الذهب والكتابة الكوفية :

" ومرشوشة بالعطر يا دار لفراح

ومشكلي بالود والمسك فواح

يادار يلي تلملم شملنا فيك

وإن عشنا يا دار بالحنا لحنيك

وأجيب بنا يبنيلك علا ليك "

في مغرب الشمس الوقور وشروقها الطازج

افترشن التراب اللزج لأقرأ برقيات التعزية

تحتها ... هذه القنطرة ...[1]

قام الشاعر هنا بربط الأحداث وكأن الماضي يعيد نفسه بمآسيه وأفراحه، ورغم ذلك يبقى الأمل ببقاء ركيزة الدار التي يملكها جد سميح " قنطرة " واقفة وسط الدمار والخراب الذي حل بالمنزل ، وهاهي جدته رمز الإخلاص والوفاء تجاهد بما تملك وتعطي للثوار ذاكرتها وعزتها ليتسلحوا به ويكافحوا، فهي تملك من الصبر ما سيوصلها لتطير بحرية وكرامة بعيدا عن الذل والمهانة .

[1] . سميح القاسم : الأعمال الكاملة " المجلد الأول " ، دار الهدى ، مطبعة الشرق العربية ، القدس ، ط1 ، 1991 ، ص : 410 .

ففلسطين وترابها إرث يخص الشعب الفلسطيني وجب المحافظة عليه بالنضال والمقاومة ، فهذه الدار هي الوطن الغالي الدافئ بنسيمه وعطر ترابه الفواح بالمسك، الذي لا بديل له فهو كالأم يحضن ويلم شمل أبنائه بحنية وعطف وما يوفره من خيرات وأرزاق لعيشة هنية وكريمة، هو الأصل والعراقة للفرد والمجتمع، فلسطين وطن العزة والكرامة والشموخ، هو يعتصب في انتظار وعلى أمل أن يسطع نور في مشارق الأرض ومغاربها، لاسترداده واسترجاعه من الظلمة لتشرق الشمس من جديد.

فالشاعر هنا أراد بث رسالة لتوعية أبناء شعبه لما يحدث من سياسات التهجير والاستيطان، وتشريد الشعب من أرضه ووطنه، وتجويعه وتعذيبه وإشغاله عن قضيته التي هي ماضيه وحاضره الغير ممكن نسيانه أو التفريط فيه.

على هذا الشعب أن يعي جيدا أن الاستدمار ما هو إلا رجل سفاح مجرم قاتل لكل ما هو جميل وبريء، وردعه يكون بالتوحد ومقاومته بالسلاح والكفاح المنظم، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، فعار أن نقف متفرجين وعرضنا ومالنا ينتهك ويغتصب أمام أعيننا، لن نيأس، سنحارب ونستمر بما بدأه أجدادنا دون استسلام أو خضوع.

نعم وجب رفع يد الظلم بيد من حديد، والوقوف في وجه هذا الإعصار الصهيوني بقوة وشجاعة دون تراجع أو ضعف.

وجب إرعابه وتلقينه درسا في الأخلاق والإنسانية، وعدم فتح المجال له بالتمادي في أفعاله وغطرسته وتهويده للشوارع والبيوت والعباد والبلاد، ففلسطين وطن لا يعرف المهانة والركوع، هو بلد العزة والشموخ بلد الكرامة والكرماء، بلد الشهيد والشهداء، بلد يعشق الحرية والسلام، بلد كره العنف والدمار، واشتاق للحرية والوئام، فلن نبخل عليه بدمائنا، بأرواحنا، بأبنائنا، فوطننا هو هويتنا سنسقيه بدمائنا.

تعتمد الأغنية الشعبية في تأثيرها على الموسيقى، ولكل أغنية نمط موسيقي معين على بحر من بحور الشعر الفصيح، أو على جزء من البحر أو على خليط من بحرين أو أكثر، ويرجع ذلك إلى عدم معرفة المغني الشعبي ببحور الشعر

الفصيح، وعدم درايته وتضلعه في اللغة العربية في أغلب الأحيان . فأحيانا يمد المغني الشعبي الحرف المتحرك ويحرك الساكن، وأن أغاني السامر تعتمد على البحر البسيط وتفاعيله، والعتابا على البحر الوافر، والمجانا على بحر الرجز وظريف الطول على بحر الرمل، وأغنية عريسنا زين الشباب من أغاني الزفة على مجزوء الرمل ....إلخ.

وتظل الأغنية الشعبية هي العمود الفقري الفكري والشعوري للقصيدة، وذلك بصورة واضحة معلنة لكن في بعض الأحيان تكون الصورة خفية عندما يغير الشاعر أو يحور مضمون الأغنية الشعبية لتناسب تجربته، وبهذا نجد أن القصيدة تكاد تخلو من عبارات الأغنية كاملة، كل هذا لا ينفي أن الأغنية الشعبية ساعدت على إيصال تجربة الشاعر ووعيه، ووجدت صدى في نفوس الشعب، وعبرت عما يجول بها من أحاسيس ومشاعر، فراحت تنتشر وتذاع بين الأجيال وتحفزهم على الثورة والتحرر، وهي الغاية المنشودة بالحفاظ على الوطن الغالي.[1]

[1] ينظر حماد حسن أبو شاويش، توظيف التراث الشعبي في الشعر الفلسطيني للحفاظ على الهوية الوطنية، مكتبة اليازجي. غزة، د ط، د ت، ص 15، 16.

ثالثا : توظيف الحكاية الشعبية .

تعد الحكاية الشعبية الخرافية من أهم الأنواع الأدبية الشعبية انتشارا، هذا لأن الناس مازالوا يتداولونها في حيز جغرافي ضيق .

ففي تراثنا الشعبي الحكاية الخرافية تقابلها الخرايفة أو حكاية الغول[1] والحكاية من حاكى، يحاكي، محاكاة أي التقليد ومجاراة الواقع والنسيج على منواله تصويرا خياليا يلهم السامع فرصة تصديقه .

تقول نبيلة إبراهيم : « وقد انتهى الكاتب إلى أن الحكاية الخرافية البدائية تكونت في الأصل من أخبار مفردة نبعت من الشعوب البدائية ومن تصوراتهم ومعتقداتهم، ثم تطرفت هذه الأخبار، واتخذت شكلا فنيا على يد القاص الشعبي وأصبحت لها قواعد وأصول محددة درسها الكاتب دراسة وافية، ولما فرغ من ذلك قدم لنا نماذج رائعة للحكاية الخرافية من أدب العالم محاولا أن يستخلص الحقائق المميزة لطريقة الرواية لدى كل الشعب على حدى »[2] .

تعد الحكاية الشعبية من المأثورات التراثية التقليدية الشفوية، كما تتداخل مع الأساطير وحكايات الجن، يقول أحمد كمال زكي: « أن الخرافة أصلها إشاعة، ثم زيد فيها وأصبحت جزءا من تراث الشعب المنقول، وذلك قبل أن تتخذ شكلا فنيا لدى القصاص الشعبي، وهو يصنفها حسب رأيه ضمن الأسطورة الرمزية في محاولته إيجاد علاقة تربط بينها وبين الأسطورة »[3].

لقد حظيت الحكاية الشعبية في فلسطين باهتمام بالغ بين طبقات المجتمع في القرية والمدينة والبادية كل على حدى، إلا أن المجتمع القروي أعطاها اهتماما أكبر من مجتمع المدينة والبادية، للتسلية وتمرير الوقت، فالحكاية الشعبية بفلسطين لا تختلف عن الحكاية الشعبية ببلاد الشام للتقارب الجغرافي، واللهجة العامية .

ورغم اعتماد الحكاية الشعبية على اللغة العامية البسيطة، إلا أنها توصل الرسالة التي أوكلت لها، فالألفاظ قوية تؤدي المعنى، وتسلسل الأحداث لا يترك

[1] . سعيدي محمد : الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ط ، 1998 ، ص : 55 .

[2] . نبيلة إبراهيم : أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 3 ، د ت ، ص : 79 .

[3] . أحمد كمال زكي : الأساطير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، 1985 ، ص :15 .

ثغرات، كما نجد حضور الوصف والخيال بقوة أما الأسلوب كان بسيطا خال من التعقيدات التي تربك مركزة على الأحداث وتسلسلها بغض النظر عن وصف الشخصيات ونفسياتها .

وقد عملت الحكاية الشعبية بفلسطين كتعويض عن عدم مقدرة الإنسان على تحقيق رغبات معينة كان من الصعب عليه تحقيقها، كما انها ليست بمعزل فالقصة الشعبية الفلسطينية تعويض عن الجوع والعجز أمام هذا المرض الذي يدعى إسرائيل، فنجد بين ثناياها الخطاب الفقير قد حصل عن طريق الصدفة على باطيه يمتلئ بالطعام بمجرد دعوته لذلك، ونجد الأعمى وقد جلس تحت الشجرة فأرسلت له العناية الإلهية حمامتين تتحادثان، فتقول الأولى للثانية : أن الأعمى إذا تكحل بريشي من دمك فسيرى، ويسرع الأعمى الملهوف على مداواة نفسه بطريقة رائعة هبطت عليه من السماء ويبرأ، أما الفقير المضطهد والذي أهمله الناس وأهدروا حقوقه نجد خادما ذا قوة خارقة يعينه على أن يبرز نفسه وينال إعجابه الجميع بتحقيقه للمعجزات والقضاء على أعدائه .

كما تطلعنا الحكاية الشعبية على قيم الشعب ومثله في مجتمع البادية والريف والمدينة كل على حدة، وهي التي تحدثنا عن تقاليد البدو في استقبال الضيف وفي الغزو والنهب، وفي العلاقات العاطفية التي تكون سبب تحالف القبائل أو تحاربها، كما أنها حافلة بدفاع القبيلة عن حماها بالنفس والنفيس، وحافلة بها أنتجه الفلاحون وبقصصهم، وبقصص البطولات الوطنية التي بولغ فيها فألبسها الخيال ثوبا زاهيا كما يراه بعيدا عن الحقيقة، كما أن البطل مهما طال اغترابه يعود إلى وطنه وحافلة بصور اعتزاز القوم بتماسكهم وتوحدهم وقد لاحظ الباحثون أن عناصر حديثة قد دخلت على الحكاية ذات علاقة بالتجمع من أجل المقامة للأعداء في الدين والأرض وغير ذلك، فغالبا ما يكون البطل ذكي شاب يخرج من المآزق منتصرا ولا يضره أن يتعاون مع الخوارق، إذ يحتاج إلى مهارة ودهاء وشجاعة الإقدام التي لا تتوفر عند الكثيرين، فتقف واعظة مرشدة مستعينة بقيم روحية عالية كحب الوطن والخير والعدل وإغاثة الملهوف، ووجوب انتصار الحق على الباطل .

وتدفع شفوية الحكاية للاعتماد على صيغ كلامية لتقوية الذاكرة، إذ توجد فيها عبارات متوازية أو متعارضة، وشخصيات تميل إلى النمطية، وتكتسب أبعادا بطولية أحيانا، وهي شخصيات عجيبة تكون معينا للذاكرة مثل : العملاق ذو العين الواحدة، الغول.[1]

ومن الذين وظفوا الحكاية الشعبية في قصائدهم على مستوى الشكل والمضمون نجد الشاعر سميح القاسم الذي اقترب من الشعب أكثر باستحضاره للحكاية الشعبية التي يتفاعل فيها الشاعر والمستمع، بتمثيل روحهم ومشاعرهم وخيالهم فيها .

فمن الحكايات التي استحضرها سميح القاسم في قصائده، حكاية الغول والجن والسحر وهي ما يعرف بحكايات الخوارق .

ففي قصيدة "الهولة الثالثة" نجد بروز حكاية الغولة وتظهر أحيانا على أنها شريرة، ذكية وماكرة، تحاول بشتى الطرق البحث عن غذائها من بني البشر، لكنها تقتل في النهاية مثل ما حدث في حكاية " الغولة والفرسان" . يقول سميح القاسم :

مات في بيته فانتقم
لم يهن للألم .. لم يهن للندم
كان مستهترا بالطوالع
لا يشتري صحفا تنشر الحظ في صدر أبوابها الثابتة
ولذا مات في بيته
.....
إنما صاح بي صاحبي
صاح من منتهى موته :
خلف مملكة الموت مملكة لم تطأها قدم
وعلى بابها حارس منذ صحو الردى لم ينم
خلف مملكة الموت مملكة

[1] ينظر نمر سرحان : الحكاية الشعبية الفلسطينية ، مجلة الرسالة ، بيروت ، العدد الثالث ، ط1 ، 1974 ، ص 33.

يوم عفت الممالك يمّمت أسرارها[1]

في الطريق انتبهت إلى هولة أو قدت نارها.

خفت يا صاحبي

قلت أبدؤها بالسلام

قهقهت ثم ردت ومامن كلام

لولا سلامك

لفصفصت عظامك

قبل لحامك.[2]

من الواضح أن الشاعر سميح القاسم استعمل دلالات خفية ومضمنة في نصه الشعري، يحكى لنا قصة الصاحب الذي توفي في بيته وهذه الوفاة التي كان الخذلان هو السبب فيها " خذلان الحكام "، طهو هذا الصاحب ينهض من موته و يصرخ في وجه الظالم المستبد متحديا إياه محاربا بكل ما أوتي من قوة غير مستسلم أو مكترثا للموت فهو أقوى وأكبر من كل هذا يستطيع أن يكون كما كان وأفضل مما كان سيكون فهذا الصاحب هو فلسطين الصامدة في وجه الطغيان والطوفان الذي عصف بها وحاول القضاء على الأخضر واليابس، وتشريد الشعب بالإغتراب عن وطنه الذي رمز له بمملكة الموت، الإغتراب يمثل لصاحب الموت ببطء وتخذير للعقل والحسد بما يحمل من مشقة ومعاناة وتعب الروح.

[1] سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، "المجلد الأول "، ص : 710 .

[2] المصدر نفسه ، ص 710.

كما أن العنوان الهولة هو دلالة رمزية للغولة التي تمثل اسرائيل ببطشها وعنفها وعدواتها وما قامت به من آلم واستنزاف وتجريم وتهويل وتغويل، من شرور، ومكر، ودهاء وسفك دماء، ويبقى الفلسطيني صامدا قويا شجاعا غير خانع ولا راكع مواجها كل الأغوال والأهوال.

كما نجد الحكاية السحرية بارزة في قصيدة " الساحر والبركان " لسميح القاسم وهي حكاية يتغير مجرى الأحداث فيها بالسحر وغالبا تكون الشخصية الشريرة هي الفاعلة أي تساهم في سحر الشخصية الخيرة، أي بأمر ممن يضمر الشر، يلعب الخيال دوار كبيرا فيها وتتشقر مواضعها. هنا أود أن أشير إلى تشابه بعض القصص في التراث الفلسطيني مع غيره على سبيل المثال نجد حكاية " ست البدو مع حكاية عيشة بنت السلطان وحكاية بليبل الصباح التي تشبه استحضرها سميح وحورها في قصيدته الهولة الثالثة تشبه حكاية السلطان وزوجاته الثلاث يقول سميح القاسم :

وشعوذ الساحر فانطلق
من قمقم البحار مارد صغير
يريد للزورق أن يقبل الغرق
يريد للحرية الحمراء
أن تقطن في كوخ ... من الورق
يريد للجذور أن تحيا بلا شجر[1]
يريد للأشجار أن تحيا بلا ثمر
يريد للإنسان أن يموت في الحياة
يريد أن ... وانفجر البركان
والتهمت ساحره النيران
فعاد للقمقم أن يستجير

[1] سميح القاسم : الديوان الساحر والبركان، دار العودة ، بيروت ، دط ، 1973، ص 78

بساحر جديد

بساحر ليس له وجود [1]

استدعاء الشاعر في قصيدته الواقعة التي يخرج فيها المارد من القمقم بيد ساحر، وهذا الساحر هو البريطاني والمارد هو اسرائيل التي كانت آنذاك لا شيء في قمقم أو قمم العالم، أخرجت للوجود هذا الكيان الصهيوني الصغير المنبوذ خرج للعالم وكأنه من سادته وشرفائه وأقوياءه، وراح المارد يغرق فلسطين بالدماء مريدا بها شلالات حمراء، مخرصا صوت الحرية بسجنه مقتلعا لأصالة الأمة العربية الفلسطينية، صانعا تاريخا مزيفا له يغرس أشجاره التي لا جذور لها مقابلا للظلام قاطع لنور للصلات لكل الآهات، مخربا، قاتلا لأخيه الإنسان وينفجر الركان ويرمز هنا للحرب العالمية الثانية التي تطيح وتضعف بريطانيا وتنهكها، ملتهمة نارها وجمارها هذا الساحر وكأنها لعنة تلحق به لما فعله بفلسطين حين قدمها كعروس لبني صهيون، وعاد المارد في رحلة للبحث عن ساحر جديد يلتصق به وهذا الساحر مستقبلا لن يكون موجود ولن ينفعه.

[1] [1] سميح القاسم : الديوان الساحر والبركان، ص 79

ويوظف سميح القاسم حكاية الجن كغيره من الشعراء العرب المعاصرين في قصيدة " تجاوز "، حكاية الجن المحدودة التي يكون الجان أحد الشخصيات المساعدة أو الرئيسية مثل حكاية الصايد والحمامة، الحمامة هي الجنية، أو أحمد ولد السلطان الذي تساعده الجنية الذهبية في النجاة.

يقول سميح القاسم:

وتمسك الجنية بطرف البرق

وتهوى معه، إلى سياج الكوخ

وكانت الصبية نائمة.

فقصت الجنية بظفرها الفضي

خصلة شعر ناعم أشقر مثل العسل الممتاز

وابتسمت في حلمها البنت

ودست جنبها الجنية جوهرة من أثمن الألماز

وعادت الجنية

وأمسكت بطرف البرق[1]

وطارت معه، طارت إلى مملكة الغيوم

وقهقهت مزهوة، وقهقه الأمير

من فرح .. وصاح بالنجوم :

تزين لحفلة الزفاف [2]

[1]. سميح القاسم : الأعمال الكاملة ، ص 432

[2].المصدر نفسه ، ص 432

كان لحكاية الجن وقع على النفوس، لما طبعته من قوة النفوس، لما طبعته من قوة التأثير بتعويض الإنسان الفلسطيني عن عجزه وكبته وقهره، في زمن الظلم والجبروت الذي تتكبل فيه الأيدي العادية عن رفعه لوحدها فلجأت إلى قوى خارقة من عالم الجن عالم التخيل والقدرات فالشاعر إستطاع بذكاء معتاد لمس النفوس وما تشعر به من ثقل وعجز عن التحرك، والإكتفاء بالتفرج ف عدو قوي قاهر باطش، وحاجته لآداة أو مساعد يعوض نقصه فتحققت لصبية أحلامها في سعادة وهناء كجوهرة غنة وهذا ما أراده الشاعر هنا الهروب من عالم مرقاس إلى عالم تناسب مع الأمال والطموحات، عالم يذلل الصعاب خال من الألم والمآسي من الإغتراب والتشرد بعيدا عن حاجز أو سجن خانق مظلم اسمه الاحتلال وأي احتلال الإسرائيلي الذي يفوق التصور والخرافات بقسوته الغير الموجودة مثلها.

الخاتمة:

يعتبر الشاعر سميح القاسم من الشعراء الفلسطينيين الذين حملوا القضية الفلسطينية على أكتافهم، وهذا لما نجده في شعره من النضال والمقاومة والبسالة ضد المحتل الغاشم فقد سعى سميح القاسم جاهدا لدفاع عن الهوية والأرض الفلسطينية وقد ساعد على ذلك فكره الشيوعي الذي يرفض الظلم والجور بكل أنواعه ويدعو الى التحرر .

فسميح القاسم لم يميز في شعره بين هذا التراث أو ذاك بل دخل عليه من جميع أبوابه وأخذ ينهل منه، ومن خلال الدراسة تبين لي ما يلي :

- ✓ اطلاع سميح القاسم الواسع وثقافته العميقة في الكثير من المجالات، حيث درس الأساطير والتاريخ والأدب العربي والغربي، فكان رمزا من رموز العلم في فلسطين.
- ✓ سيطرة الفكر الشيوعي على سميح القاسم جعله يهتم اهتماما كبيرا بالشعر الأوروبي وشعرائه وخاصة شعراء الاتحاد السوفييتي مثل يفجيني ايفتشنكو.
- ✓ وظف سميح القاسم التراث بأشكاله المختلفة لينفذ من خلالها إلى قضايا شعبه المعاصرة
- ✓ فيذكر ارم وسيدوم وقصد بها الظلمة الفجرة بني صهيون مستخدما التراث كأداة ليخفي وراءها مايريد أن يقوله قلبه ، وهذه سمة من سمات الشعر العربي المعاصر.
- ✓ تحسر الشاعر سميح القاسم على المنزلة الدنيئة التي وصل إليها شعرنا العربي في هذا العصر، لذلك وجدناه يستحضر و يستنجد بشعراء فحول أمثال المتنبي والشنفرى، ولإحساسه أن النصوص التراثية تغني هذا الشعر موضوعيا وفنيا، وتشحنه بما يجعل المتلقي يتلقاه بقبول وأحسن .

- ✓ يحتل التراث التاريخي وكذلك الأدبي المنزلة الأولى في شعر سميح القاسم من حيث الكم، حيث جاءت اغلب أشعاره تحمل في باطنها التراث الأدبي وكذلك التاريخي، بينما يحتل التراث الأسطوري وكذلك الشعبي المرحلة الدنيا في شعره فلم يتوفر في شعره ذلك الكم الهائل من كلا المصدرين.

وأخيرا نستطيع القول أن سميح القاسم برع في توظيفه للتراث بكافة مصادره وعمل على صهر الموروث الغائب في النص الحاضر من خلال قدرته على التلاعب بالألفاظ في سياق شعري جذاب.

النتائج والإقتراحات :

من خلال الدراسة التي قمت بها حول توظيف التراث الفلسطيني في شعر سميح القاسم أمكنني أن أستنتج عدة نتائج منها :

- وظف سميح القاسم التراث الفلسطيني والعربي بأشكاله المختلفة واستطاع به أن ينقل قضايا شعبه وأرضه للعالم العربي والغربي .
- استعمل التراث الشعبي كالأغاني الشعبية الروزانا ، والحكاية الشعبية فجاءت لغته بسيطة سهلة استصاغها الشعب وحفظها وراح يرددها ، وينفسون بها عن حالهم جراء الضغوطات اليومية .
- شحن النفوس وغذاها بقصصه البطولية والخرافية مما جعلهم يقفون بشدة وبسالة في وجه غاصب لا يرحم.
- رسخ العادات والتقاليد ، وحاول الحفاظ على الهوية الوطنية الفلسطينية من خلال التراث الأدبي والشعبي .
- أما مانقترحه دعوة الدارسين والباحثين إلى بذل جهود في هذا المجال نظرا لوجود شح في الدراسات التي تهتم بمثل هذه المواضيع نظرا لأهميته البالغة في مسيرة الأدب العربي عموما والحديث خصوصا .

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع عن طريق الأزرق.

اولا: المصادر

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، دط، 1995 .
2. أبو الحسن بن فارس، مقاييس اللغة "تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1366 هـ، ج 6 .
3. اسماعيل بن حماد الجوهري معجم الصحاح "تاج اللغة وصحاح العربية "، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، ط 1، ج1، 1956 .
4. البارودي محمود سامي، ديوان البارودي، ضبط وشرح وتصحيح محمود الإمام المنصوري، دط، دت
5. المتنبي أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، دط، دت .
6. سميح القاسم، ديوان " قصيدة ارم "، دار العودة بيروت، دط، 1973 .
7. سميح القاسم، ديوان " قصيدة أصوات من مدن بعيدة "، دار العودة، بيروت، 1973 .
8. سميح القاسم، الأعمال الكاملة، المجلد الأول دار الهدى ، مطبعة الشرق العربية، القدس ط1، 1991 .
9. سميح القاسم، ديوان " قصيدة الساحر والبركان "، دار العودة، بيروت، 1973 .
10. سميح القاسم، الحماسة، منشورات مكتب الأسوار عكا، دط، ج 1، ج 2، ج 3، 1978 .
11. سميح القاسم، القصائد، دار الهدى، كفر قرع مج 2، ط1، 1991 .
12. سميح القاسم، جهات الروح " قصيدة انتقام الشنفرى "، منشورات عربسك، حيفا، دط، 1983 .
13. سميح القاسم، ديوان " قصيدة بابل "، دار العودة، بيروت، 1973 .
14. سميح القاسم، ديوان " قصيدة كرمائيل "، دار العودة، بيروت، 1973 .
15. سميح القاسم، ديوان " قصيدة مغني الربابة على سطح من طين "، دار العودة، بيروت، 1973 .

16. سميح القاسم، ديوان " مجموعة أغاني الدروب " الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، دط، 1973 .

17. سميح القاسم، ديوان " قصيدة يهوشع مات "، دار العودة، بيروت ،دط ، 1973 .

ثانيا: المراجع

18. أحمد جبرت شعت، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، مكتبة القادسية خان يونس، ط1، 2002 .

19. أحمد كمال زكي الأساطير، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،دط ، 1985

20. أنيس داود، أسطورة في الشعر المعاصر، مكتبة عين الشمس، القاهرة ،دط ، 1975 .

21. الرازم، عائشة جواجة، حوارية سميح القاسم، دار الفولجا، عمان، ط1، 1990 .

22. جعفر العلاق، الشعر والتلقي، دار الشروق، عمان، ط1، 1997 .

23. حماد حسن أبو شاويش، توظيف التراث الشعبي في شعر الفلسطيني للحافظ على الهوية الوطنية، مكتبة اليازجي، غزة، دط، دت .

24. خليل ابراهيم حسونة، التراث الشعبي الفلسطيني " ملامح وأبعاد " مكتبة اليازجي، غزة، دط، 2002 .

25. . سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1998 .

26. طه المتوكل وآخرون، لقاء مع سميح القاسم ، المتنبي واحد من العائلة الشعراء المركز الثقافي الفلسطيني ، بيت الشعراء ، فلسطين شتاء ، دط ، 1999.

27. عبد الله راجع، القصة المغربية المعاصرة، منشورات عيون، الدار البيضاء، ط1، 1987 .

28. عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، دط، 1979 .

29. علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي القاهرة، دط ، 1997 .

30. غالي شكري، برج بابل " أدب المقاومة "، دار الآفاق الجديدة، مطبعة رياض الريس للكتاب والنشر، بيروت، ط2، 1979.
31. فراس السواح، الأسطورة والمعنى دراسات في الميثيولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين، دمشق، ط1 ،1997 .
32. موسى إبراهيم نمر، آفاق الرؤية الشعر " دراسات في أنواع التناص في الشعرية الفلسطيني المعاصر" وزارة الثقافة الهيئة العامة للكتاب، 2005 .
33. نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، دار الغريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، دت .
34. واصف أبو الشباب، شخصية الفلسطيني في شعر الفلسطيني المعاصر، دار العودة بيروت، ط1، سنة 1981.

ثالثا: المراجع الأجنبية مترجمة

35. أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتقديم وتعليق إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دط، دت .
36. هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دط، 1937 .

رابعا: الرسائل الجامعية

37. خضر محمد أبو جحجوح، سميح القاسم وشعره "سميح القاسم بين الموقف الإيديولوجي والتشكيل الجمالي " رسالة ماجستير في النقد الأدبي، جامعة عين الشمس، القاهرة، سنة 2002 .

خامسا: الدوريات والمجلات

38. أحمد درويش، مقالة " ملامح التجسيد الفني لظاهرة الحرية في شعر محمود درويش، مجلة فصول، المجلد الحادي عشر،ع1، 1992.

39. رجاء عبيد، الآداء الفني والقصيدة الجديدة، مجلة فصول، مج7، ع 2، 1986 .

40. قاسم عبده قاسم، الشعر والتاريخ، مجلة فصول المجلد 3، ع 2، يناير، فبراير، مارس.

41. نمر سرحان، الحكاية الشعبية الفلسطينية، مجلة الرسالة، بيروت، ط1، ع3، 1974

فـــهرس المحتـــويات

المحتويات	الصفحة
شكر وعرفان	
إهداء	
مـــقدمة	أ–ج
المدخل :	
– سميح القاسم حياته ، وأعماله الأدبية.....	10-5
– مفهوم التراث ومصادره	13-11
– مفهوم التوظيف في الشعر العربي الحديث.....	15-14
الفصل الأول : التراث الأسطوري والتاريخي	
أولا: توظيف الأساطير.....	34-19
ثانيا: توظيف الشخصيات التاريخية.....	44-35
ثالثا: توظيف التاريخ سطوري.....	53-45
الفصل الثاني : التراث الأدبي والشعبي	
أولا: تضمين النصوص الأدبية.....	59-56
ثانيا: توظيف الأغنية الشعبية.....	66-60
ثالثا: توظيف الحكاية الشعبية.....	74-67
خاتمة.....	76-75
النتائج والإقتراحات.....	77
قائـــمة المصادر والمراجع.....	81-78

فهرس المحتويات.

ملخص

الموسوم بـ : توظيف التراث في شعر سميح القاسم.

سميح القاسم شاعر من الرامة ، عشق الأدب منذ نعومة أظافره وخاصة الشعر ، فكتب الكثير من القصائد مدافعا فيها عن قضية شعبه ، عشق سميح القاسم التراث بكافة مصادره ورفض الانفصال عنه لذلك أخذ الشاعر ينهل من ينابيعه المتفجرة يوظفها في شعره . فوظف الأساطير العربية والإغريقية ، مثل إرم التي بطلها في البداية هو ادم المعذبُ ، الذي تتوحد شهوته مع شهوة إرم الآثمة ، ثم يبرز صوت النبي موسى وسط هذه المدينة يسعى جاهدا إلى إنقاذها دون أن تفلح وصاياه في تطهيرها من أوبائها ، ليبرز صوت النبي محمد ويطارده المارقون فيها ، ليعيش غريبا، وحيدا منفيا في وطنه ، ثم يبرز صوت المسيح المخلص الذي ضحى بجسده كخبز من أجل هذه المدينة الآثمة ودمه خمرا لها ، وتمضي إرم الاثمة لتظهر في ثوبها المعاصر عبر هيروشيما ، لتجسد ذروة القتل البشري ، يتولد من هذا المخاض صورة إرم الفاضلة ليعلو صوت كاسترو رائد الحرية وكلمة محفوظ نجيب كفاصل بين موت الكلمة و حياتها ، ليتوازى صوته مع صوت الجواهري والإغريق مثل أنتيجونا ابنة أوديب التي تكون نور وعيني أبيها في رحلته الطويلة وهي رمز للوفاء والتضحية .

ووظف التاريخ بشخصياته وأحداثه مستحضرا شخصية قيصر كرمز للقوة والقسوة والتنكيل ، وشخصية الحسين بن علي ، وصلاح الدين الأيوبي ، ولينين رمز الحرية ، وأحداث موت يهوشع الأسطورة والقائد اليهودي ، وبابل .

كما استدعى نصوصه كنص المتنبي و الشنفرى من التراث العربي ، أما الأغاني والحكايات الشعبية فكانت بمثابة تزيين لشعر سميح القاسم لما استوحاه من أغاني الروزانا والميجانا وغيرها ، وكان لحضور قصص الجن و الغولة طابع خاص ساهم في إغواء الشعب الفلسطيني والعربي ومن خلال تحليل القصائد التي احتوت على ذلك الموروث تبين أن الشاعر يمتلك قدرة في استدعاء النصوص الغائبة وربطها في بنية النص الشعري.

RESUME

Samih El Kacem, poète du Rama, adepte de la littérature depuis son enfance, surtout la poésie, a écrit de nombreuses Qasidas qui défendaient son peuple Samih El Kacem à été aussi un amoureux du patrimoine cultuel pour lequel il ne l'a jamais quitté, car il avait pris en considération tous les aspects liés à la poésie que publiait différents auteurs, notamment grecs et arabes par exemple IRAM dont le début est l'héros: " ADAM le damné " qui unit son envie avec IRAM la malédiction qui fait entendre la voix du prophète Moussa au sein de la cité afin de tenter la possibilité de la sauver, mais en vain, ne pouvant la débarrasser de ses maux, il tenta ensuite de faire entendre la voix du prophète Mohamed (Qssl), qu'enfin des hommes étaient contre lui et tout ce qu'il entretenait, le laissant vivre comme un étranger dans sa cité; Il continua son périple en faisant entendre la voix du prophète AISSA le messie qui a fait de cette cité une nourriture pour son corps et son sang comme eau de vie e IRAM continua d'exister dans ses habits contemporains à travers HIROSHIMA qui a détruit l'humanité.

Soudain, IRAM se réveilla sous l'image grandissante ou s'élève une voix de CASTRO l'héros de la liberté; Mahfoud comme le trait d'union entre la mort et la vie de la parole dont sa voix est la même que celle de DJAOUHARI et de la Grèce comme la voix de ANTIJONA fille d'OEDIP laquelle est la lumière et l'œil de son père dans la traversée lointaine et qui est le symbole de la fidélité et le combat et pour l'histoire par sa personnalité et ses écrits dans la vie de l'empereur comme la force, la personnalité et la tuerie monstrueuse, la personnalité de Hocine, fils de Ali Ibn Abi Taleb, Salah Eddine Al Ayoubi et LENINE comme symbole de la liberté, les événements de la mort YAHOUCHAA l'historique et le chef Hebreux, et BABEL, comme il a interprété le texte de El Moutanabi et Chenfara de la richesse arabe. Concernant les chants et les cantiques populaires ceux-ci constituaient la beauté de la poésie de Sameh El Kacimi, imprégnée des chants de Rosana et Migana, et autres les histoires de "l'ogre et le démon " avaient un cachet particulier qui incitait le peuple palestinien et arabe, à travers l'analyse de la poésie qui possédait cette richesse et montrait que le poète est pourvu d'un pouvoir à l'invitation de textes abstraits et liés avec les textes dans la construction des l'épisode poétique.

بحمد الله